المنهج العقلى والمنهج النقلى
وتكاملهما فى دراسة التربية الاسلامية

دكتورة / زينب حسن (*)

مقـــدمة :

من أهم ما تشهده ساحة الفكر فى عالمنـــا المعاصر ، ذلك التطاحن والتصارع الشديدين بين مختلف الاراء والمذاهب والأفكار ، وكذلك تتالى ظهور الأزمات الاقتصادية الطاحنة وصور الخلل الاجتماعى الصارخ ، وتباين واختلاف المصالح والمطامح والمطامع ، وتشابك الأهداف والوسائل التى لم تعهدها البشرية من ذى قبل ، مما نتج عنه تشعب المشـكلات الانســانية ، واتساع نطاقها حيث ضربت جذورا عميقة فى أرض الأحـــداث حتى مست الحياة الصـــناعية والاجتماعية والأمن الداخلى والخـارجى ، والنفسى والوجدانى ٠

والاسلام دين شامل يحرص على اصلاح البشرية ، واسعاد الانسانية بنشر القيم الفاضلة والمعانى السامية والمثل العليا فى أرجاء الدنيا ، وفى انحاء العالم ، وفى كل زمان ومكان ٠ ولا عجب فهو دين الانسان مهما كان لونه ، ومهما كان جنسه ، من شرب من معينه عز وساد ، ومن أعرض عنه فان له معيشة ضنكا (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) (١) ٠ وهذا الدين الخالد ، فيه الدواء لكل داء ، أنه يرقى بالانسان ليكون خليفة الله فى الأرض لينشر البر والخير ، ويزرع النور والأمل ، ويغرس التقوى والخلق ويفتح الآفاق أمام هذا الانسان ليعرف مكانه فى الوجود ، ومنزلته فى الكون وقيمته بين الأحياء (ولقد كرمنا بنى آدم) (٢) ٠

ولم يكن الاســـلام فى يوم من الأيام قاصرا عن معالجـــة الاوضاع الاجتماعية والدولية والاقتصادية والسياسية ، بل ان هذا الدين الذى ولد فى بيئة بسيطة فى معاشها وفى أسلوب حياتها ما لبث أن امتد بتعاليمـــه

(*) أستاذ مساعد ورئيس قسم أصول التربية بتربية بنها ٠

السمحة فى الآفاق ، وعم نور هديه وعدله مشارق الأرض ومغاربها ، فتصدى بمفرده لحل قضايا الشعوب والمجتمعات والأمم فى كافة أقطـــار الأرض ، وانبرى بذاته لمعالجة مشاكل أكبر دولتين عظيمتين فى ذلك الحين : فارس والروم (٣) ٠

ان هذا الدين العظيم الذى ما قصر وما عجز عن احتواء القضـــايا الانسانية وحل المشكلات الفردية والاجتماعية العامة والخاصة قادر فى كل حين أن يقوم بدوره ويهيمن على واقع الحياة وأحكامها فيما لو رجع المجتهدون المسلمون الى نبعه الثرى الخصيب الذى فيه حكم ما بيننا مصـــداقا لقوله تعالى : (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) (٤) ٠

ومنذ ان اتصلت الأسباب بين العالم الغربى والعالم الاسلامى بدءا من القرن التاسع عشر ، حاولت أوربا والعالم الغربى خلال علمائها ومفكريها أن تفرض علينا (ثقافة) أوربا (وحضارتها) مدعية أن اسلافنا من قبل فعلوا هذا ، حين أخذوا بفلسفة اليونان وحضـــــارة اليونان ، وقالوا أن الحضارة الاسلامية لم تكن الا صورة مشوهة لحضارة اليونان ، أو لم تكن غير جسر عبرت عليه هذه الحضارة الى أوربا ٠ كانت حضارة الاسلام اذن وفكر الاسلام اذن ـ فى رأى هؤلاء ـ ذيلا لحضارة اليونان ، وترديدا لها ٠ وقد تابع أوربا ـ فى العقود الأولى من هذا القرن ـ عدد غير قليل (٥) ٠

وكان سلاح هؤلاء جميعا فى سيطرة النفوذ اليونانى ، البحث فى المنهج واندفع هؤلاء المستشرقون والمبشرون واتباعهم يعلنو أن المسلمين احتضنوا منهج الحضارة اليونانية ٠٠ المنطق الارسطاطاليسى وأنه لم يكن لهم ثمة منهج غيره ٠ وقد كان المنطق الارسطاطاليسى ، وسم الحضارة اليونانية والفكر اليونانى ، والمعبر النهائى عن جوهرها ٠

وفى مقابل ذلك المنهج ، كان هناك المنهج الذى درج عليه الفقهاء والقائم على استنباط الأحكام من أدلتها الشرعية ، مع البحث عن الدلالات والمعانى اللغوية ٠ واذا كان الأول مصدره (العقل) ، فان الثانى مصدره (النقل) ، ووقع كثيرون فى وهم التعارض بين الاثنين ، فتبودلت الاتهامات ووزعت صكوك الغفران على المشايعين ، ولو دقق هؤلاء وهؤلاء فى أصول الاسلام ،

لانتقى هذا التعارض ، ولأبصروا تكاملا وشمولا فى المنهج يصل بالمجتهد المسلم الى آفاق من المعرفة تزيد الأمة الاسلامية عزة ورفعة وتبدد العديد من صور التخلف الذى ران على الكثيرين فى العصور الحديثة ٠

مشكلة الدراسة :

بناء على ذلك نستطيع أن نحدد المشكلة التى تحاول هذه الدراسة أن تتصدى لها فى التساؤل الرئيسى التالى :

ـــ الى أى حد وعلى أى وجه يمكن ايجاد تكامل بين كل من المنهج العقلى والمنهج النقلى يعين على دراسة التربية الاسلامية بما يتفق وأغراض الشريعة الاسلامية وأسسها العقيدية ؟

وللاجابة على هذا التساؤل الرئيسى ، نجد أنه من الضرورى محاولة الاجابة على هذه التساؤلات الفرعية :

ـــ ما موقف الاسلام من التقليد ؟
ـــ ما هو مفهوم العقل وامكاناته فى الاسلام ؟
ـــ ما هى المقومات الأساسية للمنهج العقلى ؟
ـــ ماهى المقومات الأساسية للمنهج النقلى ؟
ـــ ما هى امكانات وصور التكامل بين المنهجين ؟
ـــ ما أهمية هذين المنهجين ـ وخاصة فى صورتهما التكاملية ـ فى دراسة التربية الاسلامية ؟

خطة الدراسة :

سوف تسير الدراسة وفقا لخطة تحددها تساؤلات البحث المطروحة آنفا ، ومن ثم تصبح هذه الخطة سائرة وفق الخطوات التالية :

١ ـ نقد التقليد ٠
٢ ـ مفهوم العقل وأهميته ٠
٣ ـ مقومات المنهج العقلى ٠

٤ - مقومات المنهج النقلى ٠
٥ - امكانات التكامل بين المنهجين ٠
٦ - دور المنهج المتكامل فى دراسة التربية الاسلامية ٠

١ - نقد التقليد

التقليد المشار اليه فى هذا الجزء ، هو ذلك الذى يتم بلا دليل ، هو الذى يتم (آليا) بغير وعى أو أقتناع ، أو لمجرد المداراة والنفاق ، وهو بهذا المعنى مناف ومضاد للعقل ، ولا يفيد الدين أو يساعد فى نشره ورفع شأنه ، ومن هنا حظى بالنقد العنيف والاستهزاء بأصحابه والحملة عليهم ٠ فالاسلام لا يقبل من المسلم أن يلغى عقله ليجرى على سنة آبائه ولا يقبل منه أن يلغى عقله خنوعا لمن يسخره باسم الدين فى غير ما يرضى العقل والدين، ولا يقبل منه أن يلغى عقله رهبة من بطش الاقوياء وطغيان الأشداء ، ولا يكلفه فى أمر من هذه الأمور شططا لا يقدر عليه ، اذ القرآن الكريم يكرر فى غير موضع أن الله لا يكلف نفسـا ما لا طاقة لهـا به ، ولا يطلب من خلقه غير ما يستطيعون (٦) ٠

وحين يقول الاسلام للانسان ٠٠ يجب عليك أن تفتح عينيك ولا تنقاد لما يوبقك مغمض العينين ، فكأنه قول له ٠٠ يحق لك أن تنظر فى شأنك ، بل فى أكبر شأن من شئون حياتك ، ولا يحق لابائك أن يجعلوك ضحية مستسلمة للجهالة التى درجوا عليها ٠ وان الاسلام ليأبى على المرء أن يحيل اعداره على آبائه وأجداده كما يأبى له أن تحال عليه الذنوب والخطايا من أولئك الاباء والأجداد ، وأنه لينعى على الذين يستمعون الخطاب أن يعفوا أنفسهم من مئونة العقل لأنهم ورثوا من آبائهم وأجدادهم عقيدة لا عقل فيها :

- (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) (٧) ٠

- (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا،أو لوكان آباؤهم لايعلمون شيئا ولا يتهدون)(٨)٠

ـــ (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل ان الله لا يأمر بالفحشاء · اتقولون على الله ما لا تعلمون ؟) (٩) ·

ـــ (واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ، قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين · قال هل يسمعونكم اذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) (١٠) ·

ـــ (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها أنا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون · قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا انا بما أرسلتم به كافرون) (١١) ·

وقد حمل الغزالى على التقليد مستندا فى ذلك على سببين :

الأول : ان التقليد خلق التعصب للمذاهب ودفع معتنقيها الى تكفير بعضهم فاذا المقلد الذى أعتمد فى ايمانه على التقليد لا على النظر ، يكفر كل من يخالفه فى مذهبه أو معتقده . فهو يرى أنه وحده على حق وان أصحاب المذاهب الأخرى على خطأ وضلال وبذلك انفتح باب التكفير على مصراعيه ، فاذا الاشعرى يكفر المعتزلى ، والحنبلى يكفر الباقلانى · والغزالى ، لم ينج من تهمة الكفر والالحاد ، ونظرا لهذه الفوضى فى التكفير الناجمة عن الجمود على التقليد رأى الغزالى نفسه مضطرا الى محاولة تعـــريف مفهوم الكفر فوضع كتاب (فيصل التفرقة) لهذه الغاية (١٢) ·

فى هذا الكتاب ، وقبل الشروع فى تحديد مفهوم الكفر ، يحاول الغزالى أن يبين للمقلد خطأه فى جموده على التقليد وتعصبه لمذهب متبوعه ، فاذا هو يسأل المقلد عما دعاه الى جعل الحق وقفا على متبوعه : هل سبقه لغيره فى الزمان دعاه الى ذلك ؟ ولكن اذا كان متبوعه قد سبق الباقلانى مثلا ، فان المعتزلى قد سبق متبوعه ، فلماذا لا يقلده ويترك متبوعه ؟ أما اذا كان يقلده لاعتقاده بعلمه وفضله ، فبأى ميزان زانه فعرف أنه رجح فى العلم والفضل على الآخرين ؟ ان التقليد يجعل المقلد أحق بالكفر من أى انسان كمايجعله متناقضا مع نفسه ، أما الكفر فلان المقلد يؤله متبوعه أو يحـــله فى منزلة الرسول · أما التناقض فلأنه لا يكتفى بتقليد متبوعه فى المذهب ، بل يقلده

فى النظر فيضيف الى تقليد المذهب تقليد الدليل ، ولكنه لا يرى ما يراه متبوعه ، فكأنه يرى ولا يرى ، ويسمع ولا يسمع ، فهو ينظر الى الكون من خلال فكر واحد فقط من النظار (١٣) · وهذا هو السبب الأول الذى جعل الغزالى يحمل على التقليد ·

أما السبب الثانى سهو : أن التقليد يحول دون الفهم والعلم ، أى دون فهم علوم الدين ، فالذى يمنع من فهم القرآن هو : « ان يكون الانسان مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول اليه ببصيرة ومشاهدة ، فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفا على مسموعه ، فان لمع برق عن بعد أو بدا له معنى من المعانى التى تباين مسموعه ، حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال : كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد ابائك ؟ فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد عنه ويحترز من مثله » (١٤) ·

وقال ابن عبد البر : أنه لا خلاف بين الأئمة فى فساد التقليد ، واورد فصلا طويلا فى محاججة من قال بالتقليد والزامه بطلان ما يزعمه من جوازه فقال : يقال لمن قال بالتقليد : لم قلت به وخالفت السلف فى ذلك به فانهم لم يقلدون ؟ فان قلت قلدت لأن كتاب الله تعالى لا علم لى بتأويله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أحصها ، والذى قلدته قد علم ذلك فقلدت من هو أعلم منى ، قيل له · أما العلماء فهم اذا أجمعوا على شىء من تأويل كتاب الله أو حكاية لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أجتمع رأيهم على شىء فهو الحق لا شك فيه ، ولكن قد اختلفوا فيما قلدت فيه بعضهم دون بعض فما حجتك فى تقليد بعض دون بعض وكلهم عالم ، ولعل الذى رغبت عن قوله أعلم من الذى ذهبت الى مذهبه ، فان قال قلدته لأنى علمت أنه صواب ، قلت له علمت ذلك بدليل من كتاب أو سنة أو اجماع ؟ فان قال نعم ، فقد أبطل التقليد وطولب بما ادعاه من الدليل ، وأن قال قلدته لأنه أعلم منى ، قيل له: فقلدت كل من هو أعلم منك ؟ فأنك تجد من ذلك خلقا كثيرا ولا تخص من قلدته اذ علمك فيه أنه أعلم منك · فان قال قلدته لأنه أعلم الناس ، قيل له فهو اذا أعلم من الصحابة ، وكفى بقوله مثل هذا قبحا (١٥) ·

وحكى ابن القيم عن أبى حنيفة وأبى يوسف أنهما قالا : لا يحل لأحد

ان يقول بقولنا حتى يعلم من أين قلناه · وهذا هو تصريح بمنع التقليد ، لأن من علم بالدليل ، فهو مجتهد مطالب بالحجة لا مقلد فانه الذى يقبل القول ولا يطالب بحجة · وحكى ابن عبد البر أيضا عن معن بن عيسى باسناد متصل به قال : سمعت مالكا يقول انما أنا بشر أخطىء وأصيب ، فانظروا فى رأيى فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه ، وكـــل ما لم يوافق الكتاب والسنه فاتركوه (١٦) ·

ولا يخفى علينا أن هذا تصريح منه بالمنع من تقليده لأن العمـل بما وافق الكتاب والسنة من كلامه هو عمل بالكتاب والسنة ، وليس بمنسوب اليه · وقد أمر اتباعه بترك ما كان من رأيه غير موافق للكتاب والسنة · وقال سند ابن عنان المالكى فى شرحه على مدونة سحنون المعروفة بالأم ما لفظه (أما مجرد الاقتصار على محض التقليد فلا يرضى به رجل رشيد) وقال أيضا : نفس المقلد ليس على بصيرة ولا يتصف من العلم بحقيقـــة اذ ليس التقليد بطريق الى العلم بوفاق أهل الرفاق . وان توزعنا فى ذلك أبدينا برهانه قال الله تعالى : (فاحكم بين الناس بالحق) وقال (بما اتاك الله) وقال (ولا تقف ما ليس لك به علم) وقال (وان تقولوا على الله ما لا تعلمون) ، ومعلوم أن العلم هو معرفة المعلوم على ما هو به ·

ويسوق الشوكانى هنا كلاما ويسوق حججا على فساد التقليد وبطلانه شبيه بما قاله الغزالى وأوردناه ·

وهذا الذى يشير اليه أعلام الفكر الاسلامى يلمس حاجة أساسية نحن فى أشد الحاجة اليها فى تربية المسلم المعاصر ، ألا وهى « العقلية الناقدة » التى لا تبادر الى التسليم برأى تقرؤه أو بوجهة نظر تسمعها لمجـــرد أن صاحبها فلان أو فلان من أصحاب المركز والسلطان أو حتى من أصحاب الشهرة العلمية أو اللمعة الفكرية ، وانما يسأل دائما نفسه : هل هذا صحيح؟ واذا كان صحيحا ، فما الدليل ؟ واذا كان غير صحيح ، فمـا الذى يثبت عكس ما يقال ؟

ومن عجب حقا أن يكون هذا هو اتجاه عـــديد من مفـــكرى التربية الاسلامية ومع ذلك نجد التابعين وخاصة فى العصور الحديثة يبادرون باتباع

مظم ان لم يكن كل ما كتبه المربون فى العصور السابقة ، حتى اذا ما أردت أن تتساءل عن مدى صحة ما يتبعون من آراء وأفكار ، أنكـــروا عليك ذلك وربما رموك بتهم ما أنزل الله بها من سلطان !

٢ ـ مفهوم العقل وأهميته

وما دام التقليد على هذه الدرجة من التقبيح والازدراء ، كان الوجه الآخر المقابل هو الممدوح وهو المطلوب ، وهذا الوجه الآخر هو الذى يظهر فيه (العقل) و (التفكير) بكل جلاء ووضوح ، لأن الباحث اذ يفتش عن الأدلة والبراهين ، فانما يستخدم عقله ويوظف جهاز ذهنه فيما خلقه الله عز وجل له وخصصه لهذه المهمة ٠

ومن الناحية اللغوية نجد : (عقل) : ادرك الأشياء على حقيقتها ، وعقل الغلام ، : ادرك وميز ، يقال : ، ما فعلت هذا منذ عقلت (١٧) ٠

والعقل هو بمثابة الدليل ، فلولاه لما أجدى سمع ولما أغنى بصر ، فسمع بلا عقل هو لحمة صماء ، وبصر بلا عقل هو جنون مطبق ، وتستطيع أن تجعل هذا الدليل يؤدى مهامه على أحسن ما يرام باتباعك لوازم معينة مثل :

حسن التلقى للمسموع والمنظور والمحسوس ٠
والتفكير بحرية دون تأثير من الهوى ٠
والحرص الشديد على ثمرة الأداء العقلى ٠
واغناء هذا الجهاز بالعلم المتواصل ٠

وتستطيع أن تجعله لا يؤدى مهامه بشكل طبيعى بمجانبتك اتباع تلك اللوازم ٠ وحتى اذا أدى العقل مهامه على أحسن ما يرام واعطاك حصيلة التفكير بمسألة ما ، فأنك قد تقف أمام خيارين : أولهما أن تنزل عند مقتضى النتائج تعاملا مع الأشياء بحرص وموضوعية وسداد ، وثانيهما أن ترفض النزول عند مقتضى نتائج التفكير اصغاء لبقية هوى وتأثرا ببريق شهوة(١٨)٠ ففى الخيار الأول تكون متبعا للحق باقدام لا تبالى معه بشىء ولو كان نفيسا

لأنه لا أنفس من اتباع الحق ، وفى الخيار الثانى تكون مفضلا الذى هو أدنى على ما هو خير وهذا ضلال مبين ٠

أما اعاقة دور العقل فهى معضلة يوقع الغافلون أنفسهم فيها حاسبين أنهم قد أحسنوا التصرف فتراهم لا يسمحون لعقولهم باســـــتقبال شىء من المسموع والمرئى والمحسوس الا بعد تعكيره كأن يتلقونه محاطا بحكم مسبق غير صحيح أو محملا بقدر معين من مشاعر الضـــيق والتـــذمر والكره والاستثقال ، وانسان كهذا هل يبقى غافلا بسبب اعاقته دور العقل ؟ كلا بالطبع ٠٠

كيف يظهر له اذن فيما بعد أن حصـــــيلة التفكير العقـــــلى كانت شوهاء (١٩) ؟

أولا : أنه يعلم ابتداء فى دخيلة نفسه بالتأثير الذى مارسه على عقله فاعاق عقله عن أداء دوره وجعل الحصيلة تأتى غير سليمة ٠

ثانيا : يتبين له اختلال حصيلة التفكير أثناء تعرضها لمحك التجريب فى التطبيق العملى اذ يكتشف أنها تزيد الاعوجاج سوءا ٠

ثالثا : تذكير الناصح وارشاده يكونان كالمرآة تظهر لمعيق التفكيـــر الوضع كما هو فيرى الخطأ بكل ملامحه ويقف على الصواب بكل وضوح ٠

ويكون الغافل هنا ازاء خيارين أيضا أن شاء تدارك الخطأ وأصلح الاختلال فيغدو كالمتوهم بعد زوال الوهم عنه ، وأن شاء الاستمرار على ما هو عليه رغم ما شابه من أخطاء ورغم ما يهددها من مخاطر ، كان بحق ممن يلقون بأنفسهم فى التهلكة عمدا ٠

وفى القرآن الكريم تصور كامل لأهمية العقل الانسانى وطبيعة المهام التى يؤديها والتبعات المترتبة على حصيلة التفكير سواء كان حسنا أم غيـر حسن أو أن أخذ بحصيلة هذا التفكير أم ذاك أو لم يأخذ بها ٠ فالقرآن الكريم لا يذكر العقل الا فى مقام التعظيم والتنبيه الى وجوب العمل به والرجوع اليه ، ولا تأتى الاشارة اليه عارضة ولا مقتضبة فى سياق الآية ، بل تأتى

فى كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللغة والدلالة ، وتتكرر فى كل معرض من معارض الأمر والنهى التى يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المنكر على اهمال عقله وقبول الحجر عليه ، ولا يأتى تكرار الاشارة الى العقل بمعنى واحد من معانيه التى يشرحها علماء النفس ، بل تشمل وظائف الانسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها ، وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص فى مواطن الخطاب ومناسباته ، فلا ينحصر خطاب العقل فى العقل الوازع ولا فى العقل المدرك الذى يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح ، بل يعم الخطاب فى الآيات القرانية كل ما يتسع له الذهن الانسانى من خاصة أو وظيفة (٢٠) ٠

ومن الأمثلة التى يمكن نسوقها على مكانة العقل فى القرآن الكريم ، هذه الآيات الكريمة :

- (اتيناه حكما وعلما) (٢١) ، أى فقها وعلما ٠
- (ولقد اتينا لقمان الحكمة) (٢٢) ، أى آتيناه الفقه والعقل واصابة القول ٠
- (فاتقوا الله يا أولى الالباب) (٢٣) ٠
- (ان فى ذلك لذكرى لأولى الألباب) (٢٤) ٠
- (وأشهدوا ذوى عدل منكم) (٢٥) ، أى ذوى عقل ٠

وهذه الآيات - وغيرها كثير - تدعو الانسان الى النظر فى الكون والتفكير فى روائعه ، والى جعل العقل أساسا للتحكيم والتفكير فى الطبيعة على جلالها وعظمتها ، كما تستحثه على اطلاق فكره فى السموات والأرض والوجود وما على الأرض ومن عليها ٠ ولفت نظره الى السماء كيف رفعها ، والى الأرض كيف سطحها والجبال كيف نصبها ، والى الانسان كيف خلقه ، والى الانعام كيف خلقها ، والى النباتات كيف انبتها يقول جل شأنه :

(ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) (٢٦) ٠

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ينظر الى العقل نظرة كلها تعظيم واجلال ، فقد رأى فيه أنه أصل الدين وأساسه ، وان لا دين لمن لا عقل له ، قال عليه السلام : (٠٠ والعقل أصل دينى ٠٠) ٠ وأمر بالتواصى بالعقل والرجوع اليه ، ففيه النجاة وفيه الأمان ، قال الرسول الكريم : (اعقلوا عن ربكم وتواصـــــوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه ، وأعلموا أنه ينجدكم عند ربكم) (٢٧) ٠

وبين ان الله يأخذ بالعقل ويعطى به ويثبت ويعاقب على أساسه فقال : (٠٠ أول ما خلق الله العقل فقال له : أقبل ، فأقبل ، ثم قال أدبر ، فأدبر ، ثم قال الله عز وجل : وعزتى وجلالى ما خلقت أكرم على منك ٠ بك آخذ ، وبك أعطى ، وبك أثيب ، وبك أعاقب) ٠

لكن هناك بعض العلماء الذين يشككون فى صحة أحاديث العقل ، ومن هؤلاء العالم المحدث ابن حبان المتوفى عام ٣٥٤ هـ حيث قـال : (لست احفظ عن النبى صلى الله عليه وسلم خبرا صحيحا فى العقل) (٢٨) ، ويؤكد الجوزى (توفى عام ٥٩٧ هـ) أن الأحاديث التى تبين فضل العقل كثيرة ، الا أنه لم يثبت صحتها (٢٩) ٠ ويسير الشيخ ناصر الدين الألبانى على نفس المنهج فيقول : (ومما يحسن التنبيه عليه أن كل ما ورد فى فضل العقل من الاحاديث لا يصح منها شىء وهى تدور بين الضعف والوضع ٠ وقد تتبعت ما أورده فيها أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتابه (العقل وفضله) فوجدتها كما ذكرت لا يصح منها شىء ، فالعجب من مصححه الشيخ محمد زاهد الكوثرى كيف سكت عنها) ٠

ولا شك فى أن المدافعين عن صحة أحاديث العقل يربطون بين صحة أو ضعف الأحاديث وبين قبول أو رفض دور العقل فى الحياة ، ومع أن هذه المقولة تبدو منطقية ألا أنها لا تصمد أمام النقد العلمى ٠ يقول عبد الرحمن صالح أن كلمة (عقل) اذا كانت لم ترد فى القرآن بلفظها ، الا أنه مع ذلك فان أحدا لا يستطيع أن يستند الى هذا الأمر ليصل الى أن القرآن لا يهتم بالعقل ٠ فتضعيف حديث وردت فيه لفظة (عقل) شىء ، واهمال الاعتراف بأهميته شىء آخر ، وأكبر دليل على هذا هو ان ابن حيان الذى ذكرنا عنه فى

موضع سابق رفضه صحة أحاديث العقل ، يذكر فى نفس الموضع فضل العقل وأهميته (٣٠) ٠

ويفيض ابن حبان فى حديثه عن أهمية العقل فيقول : (فالعقل به يكون الحظ ، ويؤنس الغربة وينفى الفاقة ، ولا مال أفضل منه ، ولا يتم دين أحد حتى يتم عقله) ٠ وأخبر عن محمد بن سليمان بن سارس حدثنا أحمد بن سيار حدثنا حبيب الجلاب قال : قيل لابن المبارك (ما خير ما أعطى الرجل ؟ قال غريزة عقل ، قيل : فان لم يكن ؟ قال : أدب حسن ، قيل : فان لم يكن ؟ قال : أخ صالح يستشيره ، قيل ، فان لم يكن ؟ قال : صمت طويل ، قيل : فان لم يكن ؟ قال : فموت عاجل) (٣١) ٠

وقد أدت محاولة معاوية بن أبى سفيان تركيز السلطة فى يده نهائيا وجعلها وراثية وأثراء الأمراء الأمويين ممن أقطعـــوا الأراضى الزراعية الواسعة الى ارتفاع الأصوات المنتقدة للاثراء الفاحش كصـــوت ابى ذر الغفارى ، ولعقائدية الجبر التى تبرر الاستبداد والظلم الاجتماعى ، كصوت القدرية ٠ وقد اتسمت هذه الفرقة أيضا ، على الصعيد السياسى بنقد الطبقة الحاكمة لانحرافها عن جادة الدين وتهاونها بأوامره ونواهيه ٠ ويرون أن عطاء بن جسار القاصى ومعبد الجهنى اقبلا على الحسن البصرى ذات يوم ، وسألاه عن أولئك الأمراء ، امراء بنى أمية الذين يسفكون الدماء ، ودماء المؤمنين ، ويتذرعون بأن ذلك من قضاء الله وقدره ، فأجابهم : ان اعداء الله يكذبون (٣٢) ٠

ويتضح من حديث الحسن البصرى أن القدرية عولت على العقل فى ردها على الجبرية وان لم تسمه أو تفصل الكلام فيه ، فعندما ينفى الحسن الظلم عن الله يستند الى قياس الغائب بالشاهد مفترضا اطراد صحة هـذا البرهان المعدود من أهم أدوات المعرفة العقلية ، يقول آريرى : (٠٠ وازاء الشطحات المنعتقة للشيعة المتطرفين الذين وصل بعضهم الىحد تأليه على٠٠ ذهب المعتزلة الى أن الأمل الوحيد لتوطيد دعائم اسلام قوى وموحد يكمن فى ارساء مجموعة من العقائد يقبلها العقل المدرب ويمكن فرضها بالقوة المادية)، وما تلك العقائد سوى الأصول الخمسة التى تدخل تحت رأسين أساسيين هما التوحيد والعدل ، اعتمدهما المعتزلة كتأويل أصـيل لجوهر الدين ونافحوا

دونهما اعداء الملة سواء كانوا من أصحاب التجسيم والتشبيه أو من أصحاب المذاهب والديانات الأخرى من المنتقدين • والواقع أن المشكلة لم تطرح فقط على الصعيد النظرى الذى يشير اليه اربرى ، بل الأغلب أن نشأة الاعتزال - كامتداد مطور للقدرية - لم تكن بعيدة هى أيضا ، وكما هو متوقع ، عن الواقع الاجتماعى والسياسى (٣٣) •

ولو استمعنا الى الفلاسفة لنعرف رأيهم فى العقل رأينا اختلافا بينا فى هذا المجال ، فأبو بكر بن العربى الفيلسوف ينكر هذه التسمية لهذه القوة الخفية ويقول أنها (أسماء لا فائدة تحتها ، وتهويلات لا طائل وراءها ، وذلك أن الأشياء والمدركات تسمى فى نظره علما لا عقلا حيث قال تعالى : (أن فى ذلك لآية لقوم يعلمون) (٣٤) ، كما أطلق عليها عقلا فقال تعالى : (أن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) (٣٥) وبهذا الاعتبار فالعقل عنده هو العلم وهو صفة يتأتى بها درك العلوم •

وابن رشد الفيلسوف العربى يحتفظ للعقل بتسميته لأنه يرى أن عقل الانسان ليس فى مستوى واحد فى ادراكه للاشياء ، فهناك عقول نافذة تغوص الى العمق وتضع يدها على الخيوط الدقيقة لتربط الاشياء وهناك عقول دون هذا المستوى لأنها تقف فى الربط عند الصفات الظاهرة ، والأمور الواضحة• والمستوى العقلى الأقل فى نظره من هذين النوعين تلك العقول التى لا تدرك أسرار المدركات الخفية أو الظاهرة وانما تقف فقط لتستجيب للالفاظ الرنانة ، والأدلة الخطابية الواعظية (٣٦) •

أما الجاحظ ففى رسالته المشهورة (المعاش والمعاد) فنجده يقول : (فأنما حمدت العلماء بحسن التثبيت فى أوائل الأمور واستشفافهم بعقولهم ما تجىء به العواقب فيعلمون عند استقبالها ما تؤول به الحالات فى استدبارها ، وبقدر تفاوتهم فى ذلك تستبين فضائلهم ، فأما معرفة الأمور عند تكشفها وما يظهر من خفاياها فذاك أمر يعتدل فيه الفاضل والمفضول والعالمون والجاهلون) (٣٧) •

وفى القرآن دين وأحكام ، ومنه أخذ الصحابة ومن أتى بعدهم من التابعين علمهم وتشريعهم ، وفى السنة - وهى ما صدر عن الرسول من أقوال

وأعمال – تفسير لنصوص القرآن وايضاح لمعانيه ، وهذان المصدران هما أساس الاحكام الفقهية ومنهما يستمد المسلمون معاملاتهم وعباداتهم · وحين لا يكون فى القرآن نص صريح أو فى السنة نص معتمد موثوق ، كان الصحابة وعلماء المسلمين يلجأون الى القياس أو الرأى فيحكمون العقل واللغة للتفهم والاستنباط (٣٧) ·

والصحابة اذ يسلكون هذا المسلك ، فانما كان ذلك اقتداء بالرسول الكريم نفسه مما يجعلنا نذهب الى أن (الرأى) يرجع الى عهد الرسول نفسه، والرأى الذى نتحدث عنه هو الاعتماد على الفكر فى استنباط الأحكام الشرعية · والرأى فى عهد النبى يشتمل على وجهين : أحدهما : تشريع النبى نفسه بالرأى من غير وحى ، والثانى : اجتهاد الصحابة فى زمن النبى واستنباطهم برأيهم أحكاما ليست بعينها فى الكتاب ولا فى السنة (٣٨) ·

فمن وقائع الاجتهاد التى يشهد بها القرآن أن النبى صلى الله ليه وسلم استشار أصحابه فيما يصنع بأسرى بدر ، ثم أخذ برأى أبى بكر ورجح قبول الفداء على ما رآه عمر من قتلهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) (٣٩) ، وكذلك اجتهد فى الاذن للمعتذرين أن يتخلفوا عن غزوة تبوك ، وفى ذلك نزل قوله تعالى : (عفا الله عنك ، لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) (٤٠) ·

ولعمر بن الخطاب دعوة صريحة الى أعمال العقل والفهم والقياس فيما لم يرد فيه نص على ما ورد فيه نص ، فقد ورد فى كتابه الى أبى موسى الأشعرى ما يلى : (·· ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم ، فراجعت فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك أن ترجع الى الحق ، ان الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل · الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة · ثم اعرف الأشباه والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك واعمد الى أقربها الى الله وأشبهها بالحق ··) ·

وكان عمر أكثر الصحابة استعمالا للرأى ، وكان يجتهد فى تعرف المصلحة التى لأجلها كانت الآية أو الحديث ، ثم (··· يسترشد بتلك المصلحة فى أحكامه ، وهو أقرب شىء الى ما يعبر عنه الآن بالاسترشاد بروح القانون لا بحرفيته ··) (٤١) · ولم يقف الصحابة عند النصوص ، بل رجحوا عليها

القياس ، وكذلك سار على غرارهم التابعون والأئمة من بعدهم ، وقد سمى الفقهاء الذين جعلوا الرأى أصلا من أصول الأحكام ـ أهل الرأى . وعلى ذكر أهل الرأى لابد من الاشارة الى أن الفقهاء والمؤرخين قد اطلقوا على مذهب أبى حنيفة مذهب أهل الرأى ، ذلك لأنه كان لأبى حنيفة مقدرة واسعة على تطبيق الأحكام الشرعية على القضايا العملية ، وعلى التوسع فيها بطريقة القياس ، وعلى أساس المصلحة والعدل .

واذا كان هذا هو « العقل » ومكانه المرموق فى النصوص الاسلامية الأولى ، الا أن كثيرين فى عهود التخلف قد ساروا بتربية المسلم فى طريق ربما يرفع عليه شعار العقل ، لكنه ينتهى بالناشئة الى عكس ما يراد بالعقل..

ذلك أن العقل منهج وطريق ، الا أن هناك من فهمه على أنه « محتوى » فنظروا الى الطفل على أنه مجرد عقل ، ونظروا الى هذا العقل على أنه مجرد وعاء لابد من حشوه بكل ما يمكن من المعارف والمعلومات وهما من هؤلاء أن هذه هى التربية الاسلامية المرادة ، وكانت النتيجة (طوابير) طويلة من الطلاب تحفظ أكثر مما تفهم ، تردد أكثر مما تفكر ، تتبع أكثر مما تبدع وكان من الطبيعى أن تكون حصيلة هذا وذاك ضمور حضارى واضح وأفول ثقافة كانت زاهرة فران التخلف على الناس ووقعوا بسهولة فى براثن التبعية والاستعمار !

٣ ـ مقومات المنهج العقلى

اذا كان لنا أن نقيس على القول الشائع بأن الأمور تتمايز بأضدادها ، فاننا لكى نقف على ما يميز المنهج العقلى ، علينا أن نقارن بينه وبين الطريق (العاطفى) : ان صاحب المنهج العقلى يشترط فى خطوات سيره أن تكون الخطوة التالية مكملة للتى سبقتها وممهدة للتى تلحق بها ، بحيث تجىء الخطوات معا فى تضامن يجعلها وسيلة مؤدية آخر الأمر الى هدف مقصود ، ولا فرق فى ذلك بين أن يكون السير سيرا بالقدمين على سطح الأرض ليصل السائر الى مكان يريده ، وأن يكون السير سيرا عقليا ينتقل به صاحبه من فكرة الى فكرة حتى ينتهى الى حل لمشكلة أراد حلها ، ذلك هو السير (العقلى) وعلامته المميزة ، لكن ما كل سلوك انسانى على هذا النمط الهادف ، اذ كثيرا

ما يريد الانسان شيئا ويعمل بما لا يحقق له مراده ، فاذا سألته : كيف ؟ أو سأل نفسه ، كان الجواب بأنه يحس (ميلا) لا قبل له برده يميل به نحو جانب مضاد لما ظن بادىء الأمر أنه ما يريد (٤٢) ٠

(ا) المنهج العقلى ـ بعبارة أخرى ـ منهج يتقيد بالروابط السببية التى تجعل من العناصر المتباينة حلقات تؤدى فى النهاية الى نتيجة معينة ، سواء كانت تلك الحلقات المؤدية محببة أو كريهة عند من اراد الوصول الى النتيجة المطلوبة ، وأما الطريق (العاطفى) أو (اللاعقلى) فهو أن يؤثر صاحبه اختيار الطريق المحبب الى النفس بغض النظر عن تحقيق النتائج ٠ وما كان هذا ليكون الا لأن هناك « سننا » للكون تسير عليها مظاهره المختلفة ٠

ومبدأ ثبات السنن الالهية ، ينفى عن العقلية الاسلامية ما يقال من تعطيلها للاسباب ، فكما لا تتعلق المشيئة العليا بنقص سنته تعالى فى خلقه، لا تتعلق بنقض سائر سننه الثابتة التى يجرى عليها نظام الكون ، ومنها قانون السببية وقوانين الطبيعة (٤٣) ٠ لو شاء تعالى لجعل ماء المزن اجاجا ، والليل أو النهار سرمدا الى يوم القيامة ، ولسكن الظل لا يمتد ، وسكنت الريح لا تتحرك ، وتخلف النظام الكونى الثابت لدورات الزمن وحركات الاجرام فى الفلك :

(ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ٠٠) (٤٤)

(ومن آياته الجوار فى البحر كالاعلام ، ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره) (٤٥) ٠

(أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشأ لجعلناه حطاما فظللتم تفكهون ٠ انا لمغرمون ٠ بل نحن محرومون ٠ أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ٠ لو نشأ جعلناه اجاجا فلولا تشكرون ٠٠) (٤٦)

لكنه سبحانه لم يشأ الا أن تمضى سننه الكونية ثابتة مطردة لا تنقضها المشيئة العليا :

(لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون) (٤٧) ٠

فاذا اختلت سنن الكون واضطرب نظام الفلك، كأن تجمع الشمس والقمر وتنثر الكواكب وتسير الجبال وتسجر البحار ٠٠ فذلك ومثله ، فى كتاب الاسلام ايذانا بانتهاء الحياة على هذه الأرض ، وقيام الساعة التى لا يعلم غيبها الا الله وحده ٠ حدث المغيرة بن شعبة ، قال : انكسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم مات ابنه ابراهيم ، فقال ناس : انها انكسفت لموته ، وقال عليه الصلاة والسلام (ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد) (٤٨) ٠

وتؤكد عائشة عبد الرحمن أن ما يتعلق به متهمو العقلية الاسلامية بالتواكل وتعطيل الأسباب ، من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (لا عدوى) لم يقرؤوه كاملا ليفهموه على وجهه الصحيح ٠ والحديث رواه ابن شهاب الزهرى ، ان أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا يورد معرض على مصح) ٠ قال أبو سلمة : كان أبو هريرة يحدثهما كليهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم صمت أبو هريرة بعد ذلك عن قوله : (لا عدوى) وأقام على : (أن لا يورد ممرض على مصح) فقال له الحارث ، ابن عمه ابى ذباب : قد كنت اسمعك يا أبا هريرة تحدثنا مع هذا الحديث حديثا آخر قد سكت عنه ٠ كنت تقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا عدوى) ، فابى أبو هريرة أن يعرف ذلك) (٤٩)٠

قال أبو سلمة : ولعمرى لقد كان أبو هريرة يحدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا عدوى) فلا أدرى انسى أبو هريرة ، أم نسخ أحد القولين الآخر ٠ تقول عائشة عبد الرحمن : فان لم يكن نسيان ولا نسخ ، فان الوجه فى الحديث أن يفهم ـ والله أعلم ـ محمولا على النهى عن العدوى ، لا على نفيها بمعنى النهى عن التعرض للعدوى ، أو تعريض الناس لها ، ومن ثم يكون الحديث الآخر : « وان لا يدخل مصح على ممرض » تفسيرا لحديث (لا عدوى) (٥٠) ٠

(ب) ومن المقومات الأخرى الأساسية للمنهج العقلى اصطناع ما اصطلح على تسميته محدثا بـ (الشك المنهجى) الذى يستخدمه الباحث أو

المفكر للتخلص من سطوة أية أفكار مسبقة أو تأثير التقاليد والبدع ، كى يسير فى طريق البحث قادرا على نقد أية أفكار يراها خاطئة وطرح أية آراء تكون منحرفة عن جادة الحق والشخوص الى ما يقتنع به عقله وقلبه · ولا شك أن كل ما سبق أن ذكرناه عن التقليد يعد خطوة أساسية على هذا الطريق ·

وليس الشك اثما ولا قبحا ، وانما يقبح الشك لو ظل المتعلم على حاله من الشك · وهو يحسن فى ابتداء حال المتعلم حتى يتسنى له أن يصل الى العلم الذى عنده تسكن النفس ، بل لم يكن يقين قط الا وسبقه شك ، ولم ينتقل أحد من اعتقاد الى اعتقاد غيره حتى كان بينهما حال شك ، ومن ثم فقد وجب معرفة مواضع الشك وحالاته الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين وحالاته الموجبة له (٥١) ·

ولا يلزم الشك للتعرف على مواضع اليقين فحسب ، بل للتوقف والتثبت فيما يصل الانسان من أخبار وما يرثه من اعتقادات ، ولكن فيما ينبغى أن يكون الشك ؟ ذهب ديكارت الى وجوب التخلص من الآراء القديمة عدا الدين لأن حقائقه موحى بها ، والأخلاق لدواعى عملية لا تجتمع مع الشك والتردد· واذا كان ديكارت الغربى يقول هذا ، الا أن فرقة اسلامية مع الأسف الشديد قد شط بها القول الى الدرجة التى أرادت عندها أن تسحب الشك حتى على هاتين المنطقتين ، فقد ذهب المعتزلة الى أن الدواعى العملية ذاتها هى التى تفرض على المتعلم الشك فى أصول الاعتقادات والعادات الأخلاقية من حيث أنها تتعلق بسلوك المتعلم فى الدنيا ومصيره فى الآخرة · انه لا يلزم كل متعلم النظر فى الجزء والمداخلة والكمون ، وانما يلزمه النظر فى كل علم يخشى المضرة بتركه ، فحال المتعلم كحال المسافر ، عليه أن يسأل ويبحث قبل أن يقدم حتى لا يضل أو يطرق طريقا فيه هلاكه · فالغرض من الشك أن يتحرز المتعلم من الضرر بما يتولد عن الشك وعن التفكر من معرفة تمكنه من أداء الواجبات عقلية وشرعية ، ويكون عندها أقرب الى الفضائل والطاعات ، وابعد عن الرذائل والمعاصى ، فالعلم بأن الطعام اللذيذ مسموم ، صارف له عن تناوله، ولن يتسنى للمتعلم اداء ما افترض عليه الا بعلم توصل اليه بالنظر (٥٢) ·

ولعب الشك مع الغزالى دورين هامين :

(ا) دور كان فيه الشك خفيا سمحا من النوع الذى يعترى كثيرا من الباحثين ·

(ب) ودور كان فيه الشك عنيفا هداما من الصنف الذى يعترى كبار الفلاسفة والمفكرين ٠

أما الدور الأول فيتمثل فى أن الغزالى رأى أمامه فرقا متعددة ، وآراء متنابذة متباينة ، فرأى أن ينصف من نفسه ومن هذه الفرق جميعا فألغى سلطة الآراء الموروثة وطرح قداستها ، وأخذ يبحث عن الحق من بين هـــذه الفرق ، فشكه فى هذه المرحلة يتشخص ــ ان صح هذا التعبير ــ فى أى هذه الفرق على حق ؟ولكن بأى ميزان يوزن هذا الحق ؟ هذا ما لم يدر بخلده فى ذلك الوقت ، وطبيعى ألا يدور لأن الشك فى ميزان الحقيقة مرحلة متأخرة ، فالباحث أول ما يشك فى نفس الآراء فيروح يختار منها ما يؤيده الدليل ، ويلغى ما يعوزه الدليل ، فاذا رأى رأيين متقابلين قد اعتصم كل منهما بدليل اضطرب واختلط عليه الأمر ، ولكنه لا يلبث أن يتنبه الى أن العيب فى نفس الأدلة ٠ وهنا يتجه فكره الى النظر فى نفس الأدلة ، وفى موازين الحقيقة، فأحيانا يهتدى الى ميزان يرتاح اليه فيقبل أو يرفض الآراء فى ضوئه وأحيانا يشك فى كل الموازين ولا يرى واحدا منها صالحا للوزن به ، وهذه أخطـــر حالات الشك وأعقدها وهذا ما وقع للغزالى آخرا (٥٣) ٠

وتاريخ الفلسفة يدلنا على أن الشك أو البحث مطلقا حول ميزان الحقيقة خطوة تالية ومرحلة ثانية ٠ شك الغزالى أول ما شك على هذا النحو السمح الخفيف ، فأخذ يبحث عن الحق من بين اضطراب هذه الفرق معولا على العقل وعلى الحواس ، وعلى ظاهر القرآن والسنة ، وعلى القضايا المشهورة ، فهذه كلها كانت موازين الحقيقة لذلك العهد ، فلابد أن يجربها الغزالى ، ولا يعقل أن يتخطاها ويهملها دون أن يجربها ، فأحس تضارب الأدلة ــ اطرح الغزالى للنظرة الأولى سائر الموازين ولم يستبق سوى العقل والحواس فانهما من القوة والوثاقة بحيث يظهر للانسان لأول وهلة انهما يوصلان الى العلم اليقينى الذى ينشده الغزالى ٠

ولكن الغزالى ــ على سبيل الحيطة والحذر ــ لم يقبل ميزانى العقـــل والحواس على علاتهما ، بل أخذ يشكك نفسه فيهما ويتقصى عما عساه يكون فيهما من ضعف ، فيرفضهما على أساس أو يقبلهما على أساس ٠ وبعد أن ساق الأدلة على استحقاق الحواس للشك ، كان لابد أن نتوقع أن يفعل نفس

الشيء مع العقل · ولا شك أن الغزالى بنقده للحواس قد استطاع أن ينال منها وأن يضعف من شأنها ويحط من قدرها لكن موقفه من العقل كان على خلاف ذلك اذ لم يستطع أن يقف له على ذلة ، أو يضرب له مثلا يكون قد زاغ فيه عن السادة ، وكان كل ما فعله معه أن أبدى احتمالا ضعيفا (٥٤) ·

أكثر الغزالى من اللف والدوران حول العقل لأنه قوى لم ترهبه هجمته ، وان نالت منه بعض الشيء بيد أنه على أية حال قد أخضع العقل نفسه للشك، فكان ما كان من أزمة نفسية عنيفة ، لم ينته منها الا بأن سلك طريق التصوف· وقد خرج الغزالى من هذه النوبة العنيفة واثقا بالعقل فحسب ، أما ما عداه من الموازين ، فظل مطرحا بعد لم يعد اليه الوثوق به · وهذا العقل أو هذه الضرورة العقلية كما يسميها هو ، ما دامت موثوقا بها هذا الوثوق التام ، فانها يمكن أن تتخذ وسيلة الى الحقيقة والعلم اليقينى اللذين نشدهما الغزالى (٥٥) ·

وشغلت قضية تحرير الفكر الاسلامى فى العصور الحديثة من الخرافات التى لحقت به فى العصور المتأخرة والتى عاقته عن الانطلاق وقيدته بمختلف القيود ، وكذلك تحريره من البدع المنافية للدين ، نقول شغلت هذه القضية المفكرين والمصلحين فى سائر أنحاء العالم الاسلامى من أمثال محمد بن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغانى وعبد الرحمن الكواكبى والشيخ محمد عبده وكانت مدرسة التجديد الاسلامى التى ظهرت فى القرن التاسع عشر تركز عملها على مقاومة الخرافات التى شوهت هذا الفكر ووصمته بالجمود والتأخر ، كما ركزت عملها فى بعث الحياة فى أوصال العالم الاسلامى بأن ركزت على الدين بعد تطهره من البدع التى اعتبرت ، بطول الألفة عند كثيرين، من الدين ، والدين منها براء (٥٦) ·

(حـ) كذلك يقوم المنهج العقلى فى الاسلام على الفهم والاقتناع، والاقناع هو السبيل التى سلكها القرآن الكريم فى استقطابه الناس نحو الدين الحق الذى جاء به ، وهو العقيدة الاسلامية · واستقطاب الناس نحو الدعوة الاسلامية ، يأخذ مظهرين فى الحقيقة :

الأول منهما : استقطاب الناس نحو الجديد من الآراء والمعتقدات التى تشتمل عليها الدعوة الاسلامية ٠

الثانى : استقطاب الناس نحو الرفض للمواريث الثقافية التى تتعارض مع الدعوة الجديدة ، والتى أعلن القرآن الكريم أنها غير صالحة للحياة لما فيها من باطل وما فيها من فساد يعود على الناس بالضرر (٥٧) ٠

والاقتناع هو الهدف من كل العمليات التى كان يقوم بها القرآن فى عقول الناس وقلوبهم ، الاقتناع الذى يؤكد الجديد فى العقول وفى القلوب ، ويهزم القديم فى أنفس الناس ٠ وانه من هنا اعتمد القرآن فى عملية الاقناع على أسلوبى الجدل والحوار وليس على القسر والاكراه تجىء بهما القوة أو الالتجاء تأتى به المعجزات ٠ والجدل والحوار انما يتوجهان فى الحقيقة الى العقل البشرى الأمر الذى ندرك معه الى أى حد كان القرآن الكريم يعتمد على العقل فى تكوين الايمان ٠ ومن هنا جعل القرآن الكفر آفة عقلية ، والكفرة كالأنعام أو أضل ٠ أنهم شر الدواب ، جاء فى قوله تعالى : (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون) (٥٨) ٠

وقد عنى الاسلام بالجدل والمناظرة عناية شديدة من يوم أن نشب الخلاف الفكرى بين العلماء ورجال الفكر فى هذه الأمة ، وانتهت عنايتهم بوضع قواعد لتنظيم الجدل والمناظرة لكى يكونا فى دائرة المنطق والفكر المستقيم ، أسموها علم الجدل ، أو علم أدب البحث والمناظرة ، وقد قال فيه ابن خلدون فى مقدمته: «وأما الجدل فهو معرفة آداب المناظرة التى تجرى بين اهل المذاهب الفقهية وغيرهم ، فانه لما كان باب المناظرة فى الرد والقبول متسعا ، وكل واحد من المتناظرين فى الاستدلال والجواب يرسل عنايته فى الاحتجاج ، ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطأ ، فاحتاج الأئمة الى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها فى الرد والقبول وكيف يكون حال المستدل والمجيب ، وحيث يسوغ أن يكون مستدلا ، وكيف يكون مخصوصا منقطعا ومحل معارضته ، وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال ، ولذلك قيل فيه أنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب فى الاستدلال التى يتوصل بها الى حفظ رأى ، وهدمه ، كان ذلك الرأى من الفقه

أو غيره ٠٠ وأول من كتب فيه البزدوى والعميدى ، ثم كثر التأليف فيـــه من بعدهما » (٥٩) ٠

ويلاحظ أن القرآن الكريم فى الجدل الذى يلزم الخصم ويفحمه يجيئه فى الافحام من أقرب الطرق ، وأشدها الزاما ، وطرق القرآن فى هذا كثيرة :

١ ـ منها التحدى كما تحدى الله سبحانه وتعالى بالقرآن ، وكما تحدى ابراهيم عليه السلام مدعى الألوهية بأن يأتى بالشمس من المغرب ٠

٢ ـ والأخذ بموجب كلام الخصم واستنباط ما يريده ، من ذلك قوله تعالى فى شأن المنافقين والرد عليهم (لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعـز منها الأذل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) (٦٠) ٠

٣ ـ ومنها مجاراة الخصم فيما يقول ثم التعقيب عليه بما يبطل مدعاه ومن ذلك قوله تعالى حاكيا عن الرسل مع أقوامهم: (قالت لهم رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ، قالوا : ان انتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ؟ قالت لهم رسلهم : ان نحن الا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (٦١) ٠

فمن ذلك نرى أن الرسل سلموا بالمقدمة التى بنى عليها الأقوام رفضهم ولكنهم نقضوا النتيجة بقولهم (ولكن الله يمن على من يشاء) فكأنهم قالوا ما قلتموه من أننا بشر حق ، ولكن ما تريدون أن تبنوه عليه من اثبات أننا لسنا برسل باطل به لأن الله يمن على من يشاء من عباده ، فلا مانع من أن يمن علينا بالرسالة (٦٢) ٠

واذا كنا نلاحظ تنبيها مستمرا فى كثير من الكتـــابات التـربوية على عمليات الحفظ والتسميع ، الا أننا لا نعدم وجود كتابات أخرى تشدد عـلى أهمية الفهم والتفكير على أساس أن الحفظ ان هو الا وسيلة لا غاية ، ففى كتاب كشف الظنون (ان من كانت عنايته بالحفظ أكثر من عنايته الى التحصيل لملكة (الفهم) لا يحصل على طائل من ملكة التصرف فى العلم ، ولذلك

ترى من حصل الحفظ ، لا يحسن شيئا من الفن وتجد ملكته قاصرة فى علمه ان فاوض أو ناظر ٠٠ انما المقصود هو ملكة الاستخراج والاستنباط وسرعة الانتقال من الدوال الى المداولات ٠٠ وان انضم اليها ملكة الاستحضار فنعم المطلوب) (٦٣) ٠

أما موفق الدين البغدادى فهو يشير الى ضرورة التفكير والبحث فى العملية التعليمية ، ومن هنا فهو يقول : (ولا تظن انك اذا حصلت على علم فقد اكتفيت ، بل تحتاج الى مراعاته لينمى ولا ينقص ومراعاته تكون بالمذاكرة والتفكر ٠٠ وينبه الشيخ برهان الاسلام ، المتعلم : ألا يكتب شيئا لا يفهمه لأن ذلك يورثه كلال الطبع ويذهب الفطنة ، وينبغى له أن يجتهد فى الفهم من الأستاذ ويكثر من التأمل والتفكر) (٦٤) ٠

٤ ـ مقومات المنهج النقلى

(ا) من مظاهر الايمان لدى المسلم ، ان يتيقن بان العلم من صفات الله الحسنى ، فسبحانه وتعالى هو العليم الذى لا يتبدل علمه ولا يعجز ولا يتخلف ٠٠ انه يعلم من خلق ، ويعلم ما خلق ، علم احاطة وشمول ويقين ٠ وسبحانه وتعالى يعلم الماضى والحاضر والمستقبل ، على درجة سواء من الصدق والدقة واليقين ، ويعلم ما ظهر وما استتر ، وما خفى وما استعلن فى ملكوته الذى يرتد الفكر عن ادراك سعته وهو حسير ، ويعلم السر والنجوى وما أخفى (٦٥)

كذلك يعتقد كل مسلم أن الله تعالى هو مانح العلم ومعطيه والميسر له ، فهو الذى انزل الشرائع على رسله الذين اجتباهم لتبليغ الرسالات ، فحدد أصولها ، وسن أسسها ، ووضح معالمها ، وأمر فيها بما يكفل الخير للافراد والأسرة والجماعات والبشرية كلها ، ونهاهم عما يحيق الأضرار بهم أو بغيرهم ثم أخذ العلماء يفصلون ويوضحون ويفرعون ويستنبطون ، فالله سبحانه وتعالى هو الذى علم الشرائع وهو الذى خلق العقول التى تفكر وتفصل وتوضح وتستنبط ٠

والله تعالى هو الذى برأ الناس وزودهم بالأعضاء التى يعملون بها ، وبالحواس التى بها يدركون ويعلمون من سمع وبصر ولمس وشم وذوق ،

ومنحهم العقل والذاكرة والخيال ، وخلق الأحياء والمواد التى يديرون عليها علمهم وتجاربهم ، ويتخذون منها آلات البحث والدرس وأدواته ، على تنوع العلم وميادينه : فلولا الجسوم وصحتها ومرضها ، ولولا المادة التى يصنع منها الدواء وآلات الكشف والعلاج ، ما كان طب · وهل الأجسام والمواد الا من خلق الله ؟

ولولا النبات ما كان علم النبات ·· وان البذرة والتربة والماء والهواء من خلق الله ·

ولولا النجوم والكواكب ما كان علم الفلك ·· أليس الله هو الذىخلق الكواكب والنجوم ، وهو الذى برأ العقول التى ترصد الأجرام السماوية وتدرسها ؟ (٦٦) ·

وهكذا ننطق الأمثلة بأن الله تعالى مانح العلم ومعطيه والميسر له · ذلك هو الأساس الأول الذى يقوم عليه المنهج الشرعى ، ومن ثم كان النبع الأساسى الذى تقوم عليه العلوم الشرعية هو ما جاء به الوحى ··

وكما كانت مدلولات العقل فى اللغة عديدة ، فان مدلولات الوحى أيضا عديدة ، فالوحى : الهام لا يختص به الانسان دون غيره من المخلوقات ، ففى جانب النحل نقرأ قوله تعالى (وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) (٦٧) ، وفى جانب الانسان نقرأ قوله تالى : (وأوحينا الى أم موسى أن ارضعيه) (٦٨) ·

والوحى : اشارة : (فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوه بكرة وعشيا) (٦٩) ·

والوحى : همس ووسوسة : (وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم ، وان اطعتموهم انكم لمشركون) (٧٠) ·

والقرآن الكريم : وحى : (ان هو الا وحى يوحى) (٧١) ·
والوحى فى اصطلاح الشرع معناه : الرسالات السماوية التى يكلف بها

نبى مختار من عباد الله ليعمل بها أو يبلغها مع عمله الى القوم الذين ارسل اليهم (٧٢) ٠

والوحى بهذا المدلول أنواعه عديدة : فقد يكون كلاما من وراء حجاب، ومن أنواعه أن ينزل ملك الوحى وهو جبريل عليه السلام الى الأنبياء ليلقى عليهم رسالات السماء وتعاليمها ، وقد يأتى جبريل على صور مختلفة لا نستطرد فى ذكرها ، والآية الكريمة بينت أنواع هذا الوحى فى قوله عز وجل: (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء) (٧٣) ٠

والذى يمكن أن نخلص اليه من كل هذا ، هو أن الاسلام تميز عن الأديان الأخرى التى سبقته بأن معجزته الخالدة قرآن موحى به من الله تعالى (وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين) (٧٤) ٠ أى أن القرآن ليس من صنع العقل البشرى، والا لتناولته العقول لتجاريه فى مجال القول وتناقشه فى مضمار البلاغة وتتحداه فى ميدان البيان ٠ ولا زال القرآن الكريم الى اليوم والى أن يرث الله الأرض ومن عليها يحمل عناصر القوة التى تفرض سلطانها على العقول والقلوب والعواطف والمشاعر ، والتى لا تمتلك القوى البلاغية الا أن تستسلم لها فى انقياد وخضوع (٧٥) ٠

(ب) واذا كان (الوحى) يرتبط ارتباطا وثيقا بـ (الايمان) ، فان اداة المعرفة لابد أن تكون من جنس غير جنس تلك الاداة التى نعرف بها أمور الحس والمعقولات ، فاذا كان العقل يتلقى المسموع والمنظور والمحسوس ، ويفكر فى شأنه ويمحص الرأى من كل الوجوه ، فان القرار النهائى لا ينتظر منه فى القبول أو الرفض ، وانما من ذلك المستودع الكبير للاحاسيس والمشاعر والميول ، وهو القلب (٧٦) ٠٠

أنت تنصح الزانى أن يرعوى فيعف وتذكر له فضائل العفة وتعدد له رذائل الزنى ، فاذا رأيته يكبر العفة ويستقبح الزنى عقليا ، لا تسلم بأنه تغير الا باشارة من قلبه تفهم منها أنه قد أحب العفة ومقت الزنى ، وان سلوكه بفعل هذه المشاعر قد بدأ يتأير ٠

واذاكا ن العقل وهو يمحص رأيا يتجه يمينا أو شمالا بفعل كلمة نهـا مفعول قوى ، فان القلب لا يبالى بكلمة وانما هو يخضع لاطار عام يستنفيه ويتحرك بموجب ما يشير به · والاطار العام لأحاسيس القلب ، ان كان عقيدة صدر أى قرار وفق ما تقتضيه وان خلا هذا الاطار من العقيدة ، فمعنى ذلك أن شتاتا من القيم والآراء تتنازع القلب لتعطى قرارا بشأن أمر يعرض ولذا يجىء هذا القرار أحيانا جد موافق للصواب بشكل غير مقصود وأحيانا يجىء جد معاكس له فيكون صاحبه متناقضا فى تصرفاته غير ثابت على اتجـــاه واحـد (٧٧) ·

والايمان الصادر من القلب هو الايمان الحقيقى ، أما الكاذب فهو ما ردده اللسان وقد يزينه العقل وتنفذه الجوارح ولكن بغير اتصال قلبى ، يقول تعالى : (وقالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) (٧٨) · ايمان لم يفض من الأعماق ، وانما هو أقوال لا تعبر عن ايمان حقيقى حتى عند اقترانها بعمل لم يخضع القلب للعقيدة صدقا ويسلم لها القيادة فعلا ·

واذا استحكمت الأحاسيس الفاسدة فى قلب ، لم يقبل دلالة من العقل يحملها اليه اقتباسا من مسموع أو مرئى أو محسوس ما دامت تتعـــارض مع تيار تلك الأحاسيس (٧٩) ·

لكن ذلك لا يعنى ، كما قد يتبادر للوهلة الأولى أن المنهج النقلى لا يسير وفق خطوات منهجية مضبوطة وقواعد متفق عليها ، وذلك يتضح لنا مما يأتى (٨٠) :

(١) النصوص سواء كانت سماوية أو وضعية ، فيها العام والخاص والمطلق ، والظاهر والمؤل ، والمجمل والمبين ، والناسخ الى غير ذلك من الصفات التى تتسم بها النصوص ، ومن هنا يكون من الصعب على البـاحث استنباط الأحكام من النصوص عند غموض دلالتها ، أو التوفيق بينها عند التعارض الا عن طريق قواعد وضوابط هذا المنهج ·

(٢) عندما يتناول الفقيه أو القانونى بالبحث والشرح بعض النصوص،

لا يمكنه الاحاطة بابعاد مقاصدها ولا ضبط جميع احتمالات دلالاتها ما لم يستعن بأسس وقواعد المنهج النقلى ٠

(٣) لا يمكن وضع صياغة فنية دقيقة لنصوص القانون باللغة العربية ما لم تراع فى ذلك معايير وضوابط المنهج الشرعى ٠

(٤) عن طريق أصول الفقه تتم المقارنة والموازنة بين المذاهب الفقهية فى المسائل الخلافية للتقريب بينها وترجيح الرأى المنسجم مع واقع حياتنا والزام الجميع به عن طـــريق التقنين ، وبذلك يمكننا تضييق شقة الخلاف المذهبى ٠

(٥) ولكى يحسن الفقيه والباحث استخدام هذا المنهج ، كان لابد من (الاجتهاد) ، والاجتهاد هو استخدام الفكر فيما يعرض من الوقائع ســـواء أكانت منصوصا على أحكامها أو غير منصوص فالاجتهاد فيما فيه نص يكون بتفهم النص والوصول الى المراد منه ، ومعرفة ما اذا كان النص العام ثابتا على عمومه أو خصص ، والمطلق ، هل بقى على اطلاقه أم قيد ، والظـــاهر هل بقى ظاهره أم أول وغير ذلك ٠ والاجتهاد فيما لا نص فيه يكون بالاستدلال على حكمه بالقياس أو الاستحسان أو مراعاة المصالح المرسلة ، أو بأى دليل من الأدلة التى نصبها الشارع للوصول الى حكم ما لا نص فيه (٨١) ٠

وحتى يكون عمل المجتهد (علميا) دقيقا ، و (دينيا) مخلصا وضـــع اللماء العديد من الشروط التى ينبغى أن تتوافر فى المجتهد ، أولها : معـــرفة كتاب الله تبارك وتعالى من حيث معانيه اللغوية والشرعية ، والعلل التى نيطت بها الأحكام ، والغايات التى قصد الشارع تحقيقها من جلب المصالح للعباد، ودرء المفاسد عنهم ٠ كما ينبغى للمجتهد أن يكون ملما بالعلوم التى تتعـــلق بكتاب الله ، كمعرفة أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، والمكى والمدنى ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمحكم والمتشابه (٨٢) ٠

والعلم بكتاب الله يقتضى العلم بلسان العرب ، وبأحكام كتاب الله فرضه وأدبه وارشاده واباحته ، وناسخه ومنسوخه ، وعامه وخاصه ٠ كما يجب عليه أن يكون عالما بما مضى قبله من السنن ، وأقاويل السلف واجماع الناس

واختلافهم · ويجب عليه ألا يعجل بالقول دون التثبيت ، وعليه فى ذلك بلوغ غاية جهده ، والانصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما يقول ، وترك ما يترك ·

ووضعوا شروطا أخرى مماثلة من حيث وجوب علمه بالسنة النبـــوية والعلوم التى تتصل بها ··

(٦) ونتيجة لهذا وجدنا علماء الاسلام يصلون الى ما يمكن تسميته (بالقياس الأصولى) ، الذى يمكن أن يرجع ـ كما يؤكد الأصوليون ـ الى نوع من الاستقراء العلمى الدقيق القائم على فكرتين أو قانونين : أولا ـ فكرة العلية أو قانون العلية ، وتتلخص فى أن لكل معلول علة ، أى (ان الحكم ثبت فى الأصل لعلة كذا) ، فحكم التحريم فى الخمر معلول بالاسكار · ثانيا ـ قانون الاطراد فى وقوع الحوادث ـ وتفسيره أن العلة الواحدة اذا وجدت تحت ظروف متشابهة ، انتجت معلولا متشابها (أى القطع بأن العلة ـ علة الأصل ـ موجودة فى الفرع ، فاذا وجدت انتجت نفس المعلول · فاذا كنا قد وجدنا الاسكار فى الخمر ، ووجدنا التحريم ، ثم وجدنا الاسكار فى أى شراب آخر ، جزمنا بوجود التحريم فيه) ، فهناك اذن نظام فى الأشياء واطراد فى وقوع الحوادث (٨٣) ·

بيد أنه ينبغى أن نلاحظ أن الأصوليين لم يقصروا صحة القياس الأصولى على ما كان فيه علة بل انقسموا فى هذا الى قسمين :

١ ـ قسم يذهب الى صحة القياس (اذا ما لاح بعض الشبه) أى اذا كانت هناك صفات عرضية موجودة فى الجزئين ، فنحكم بتشابههما · وهـذا النوع من القياس ظنى الى أقصى حدود الظنية ولا يمكن الاستناد اليه فى البحث العلمى ·

٢ ـ قسم ـ وهم معظم الأصوليين بل والمتكلمين ـ يذهب الى ضرورة وجود العلة بين الأصل والفرع ، أى أن يكون بينهما رباط على لا عرضى ·

ولا يكتفى الأصوليون بهذا ، بل يرون أنه لابد من طرق لاثبات العلة ،

لأن العلة هى الصفات التى يستند اليها الحكم ، وقد تعارف الأصوليون على تسمية هذه الأدلة بالمسالك ، وهذه المسالك أو معظمها ليست فقط طرقا لاثبات العلة ، بل هى علل جامعة (٨٤) ٠

ومن أهم مسالك اثبات العلة : السبر والتقسيم ، والسبر والتقسيم فى اصطلاح الأصوليين يعرف بأنه : حصر الأوصاف التى توجد فى الأصل « المقيس عليه » والتى تصلح للعلية فى بادىء الرأى ، ثم اختبارها ، بابطال ما لا يصلح ، فيتعين الباقى للعلية ٠ والمراد بالحصر مجرد ذكر الأوصاف ، وليس المراد منه أن تذكر منحصرة ، أى مرددة بين النفى والاثبات ليشمل قسمى التقسيم المنحصر والمنتشر ٠

وتسمية هذا المسلك بمجموع هذين الاسمين واضـــحة الا أن الموافق للترتيب الخارجى أن يقال : التقسيم والسبر بتقديم التقسيم على السبر ، لكنهم عكسوا الترتيب ، لأن السبر هو أهم الأمرين فى الدلالة على العلية ، والتقسيم ما هو الا وسيلة اليه ٠٠ وقد يسمى هذا المسلك (بالسبر) ، وقد يسمى (بالتقسيم) (٨٥) ٠

(٧) وما دمنا فى نطاق الثقافة (العربية) كان من الطبيعى أن تلقى (اللغة العربية) بظلها الواضح على المنهج الشرعى ، فظهرت العناية بالمعنى مثلما ظهرت باللفظ ٠ والذى يقرأ بعض كتابات (ابن جنى) يستطيع أن يلمس بوضوح زيف تلك التهمة التى اتهمت بها اللغة العربية ، حيث اتهموها بأنها تعطى اهتماما للفظ أكثر مما تعطى للمعنى ، فابن جنى يقول : (٠٠ ان العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة ، وبالخطب تارة أخرى ، وبالأسجاع التى تلتزمها وتتكلف استمرارها ، فان المعانى أقوى عندها ، وأكرم عليها وأفخم قدرا فى نفوسها ٠

فأول ذلك عنايتها بألفاظها ، فانها لما كانت عنوان معانيها ، وطريقا الى اظهار أغراضها ومراميها ، أصـــلحوها ورتبوها ، وبالغـــوا فى تحبيرها وتحسينها ، ليكون ذلك أوقع لها فى السمع ، واذهب بها فى الدلالة على القصد ، الا ترى أن المثل اذا كان مسجوعا ، لذ لسامعه فحفظه ؟ فاذا هو حفظه كان جديرا باستعماله ؟ ولو لم يكن مسجوعا لم تأنس النفس به ،

ولا انصتت لمستمعه ، واذا كان كذلك لم تحفظه ، واذا لم تحفظه لم تطالب أنفسها باستعمال ما وضح له ، وجيء به من أجله ..

(فاذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها ، وحملوا حواشيها وهذبوها ، وصقلوا غروبها وارهفوها ، فلا ترين أن العناية اذ ذاك انما هي بالألفاظ ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعانى ، وتنويه بها وتشريف منها ، ونظير ذلك اصلاح الوعاء وتحصينه وتزكيته وتقديسه ، وانما المبغى بذلك منه الاحتياط للموعى عليه ..) (٨٦) .

ومن هنا كان اشتراط معرفة اللغة العربية للمجتهد شرطا أساسيا وهاما. وما تتضمنه من نحو وصرف ومعان للمفردات وبلاغة ، وبيان ، بحيث يميز المجتهد بين المعنى الظاهر والخفى ، وبين الحقيقة والكناية ، والاشتراك والشبه ، حتى يتمكن من العلم بما تدل عليه كل كلمة وبطريق دلالتها عبارة أو اشارة أو فحوى أو غير ذلك (٨٧) . قال الشافعى : (ان الله خاطب بكتابة العرب بلسانها ، على ما تعرف من معانيها وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها ، وان يخاطب بالعام الظاهر مرادا به العام الظاهر ، وعاما ظاهرا يراد به العام ، ويدخله الخاص ، ويستدل على هذا ببعض ما خص به فيه .

وعاما ظاهرا يراد به الخاص ، وظاهرا يعرف فى سياقه انه يراد به غير ظاهره . والكلام يتبيء أوله عن آخره ، وآخره عن أوله وان تتكلم بالشيء تعرفه بالمعنى دون الايضاح باللفظ ، كما تعرف الاشارة ، وتسمى الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة وتسمى بالاسم الواحد المعانى الكثيرة) .

ثم قال : (فمن جهل هذا من لسانها وبلسانها نزل القرآن ، وجاءت السنة ، فتكلف القول فى علمها تكلف ما يجهل بعضه ، ومن تكلف ما جهل. وما لم تثبته معرفته كانت موافقته للصواب ، ان وافقه من حيث لا يعرف غيره محموده ، وكان بخطئه غير معذور اذا نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الصواب والخطأ فيه) (٨٨) .

ولكن ما الدرجة التى ينبغى للمجتهد ان يصل اليها فى معرفة اللغة العربية ؟ .

أجاب الأصوليون عن هذا بجوابين :

الأول : أن يعلم من اللغة العربية والنحو القدر الذى يفهم به خطاب العرب وعاداتهم فى الاستعمال ٠

الثانى : أن يكون مجتهدا فى اللغة العربية فيبلغ فيها مبلغ الأئمة كالخليل وسيبويه ٠

ذهب الى القول الأول جميع الأصوليين كالغزالى والأمدى والسبكى والبخارى وغيرهم ٠٠

وذهب الى القول الثانى : الشاطبى ٠

واذا كان هذا هو مبلغ اهتمام (السلف) فى العصور الاسلامية الزاهرة بـ (اللغة) فى الدراسات الاسلامية بصفة عامة والشرعية والتربوية بصفة خاصة ، واذا كان هذا الاهتمام قد استند - كما رأينا - الى أسس منطقية وشرعية ، الا أننا نواجه فى العصور المتأخرة وضعا آخر تحولت فيه اللغة كأداة مساعدة الى هدف يغلب على غيره بحيث أضحى الاهتمام بالشكل أقوى من الاهتمام بالموضوع ٠

ان اللغة هى وعاء الفكر ، لكن بعض باحثينا قد نسوا أن الفكر لا ينشأ من فراغ ، وانما يتأثر الى حد كبير بالوضعية الاجتماعية القائمة وبما يطرأ عليها من تحولات وتبدلات ، حتى لقد أصر بعض أسلافنا على ابراز أهمية (العرف) المعبر عن الأحوال الاجتماعية وظروفها المتغيرة ٠

ولقد أدى بهم هذا الى التغافل عن القضايا الحياتية الملحة التى تواجه الناس ويحتاجون فيها الى أن يتعرفوا على الرأى الدينى والحكم الشرعى ٠ وكان من شأن هذا أن يدفع بالبعض من الناس الى البحث عن بغيتهم فى مصادر أخرى لم تكن على المستوى الدينى المطلوب ، ما دام أهل الرأى العلمى الدينى قد اهتموا بمباحث وموضوعات افتراضية نادرا ما تحدث بل بعضها يستحيل أن يحدث وتركوا الأمور المعاشية نفسها ٠

كذلك فقد برزت أساليب أخرى تقوم على التحليل والتركيب والتجريب

سواء من الناحية الاجتماعية أو الفكرية أو العلمية أصبحت الحاجة ماسة الى استخدامها فى الدراسات الاسلامية المختلفة ، فبذلك يمكن مواجهة احتياجات المسلمين المعاصرة ويثبت بالدليل والبرهان والتطبيق أن الفكر الاسلامى فكر يحتوى فى حد ذاته على امكانات هائلة تجعله قادرا على مواجهة الظروف المتغيرة بعقل متفتح لا يجمد الا على الأصول ، لكنه فى الفروع فيه الاجتهاد وفيه التجديد ٠

٥ ـ تكامل المنهجين

لقد تعمدنا ونحن نعرض لمقومات كل من المنهج العقلى والمنهج النقلى ، أن نبرز نقاطا فيهما تؤكد ضرورة الالتقاء وحتمية التكامل ، وانهما ان اختلفا فى الأسلوب ، الا أن المصب الذى يصبان فيه واحد ، وسوف يتضح لنا هذا فى الصفحات القليلة التالية ٠٠

وقد نرى أن الخطأ الأساسى فى هذه القضية ، هو وضع الدين فى مقابل العقل ، والايمان فى مقابل العلم ، وكأنهما نقيضان لا يمكن أن يجتمعا فى الانسان الا من قبيل تصادم الاضداد ، وذلك ما ترفضه العقيدة الاسلامية التى حسمت الخصومة بين الدين والعقل ، اذ هما عنصران جوهريان فى الانسان ، يتلازمان ولا يتناقضان : العقل مناط انسانيته الناطقة ، اذا عطل بالجهل والغفلة والعمى ، مسخت بشرية الآدمى فهبط الى دونية الدواب العجماء (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) ٠ المرض العضال والداء الخبيث ، هو فساد القلب بالكفر والنفاق والزيف والشهوة والقسوة والضغينة ، والعقل هو الذى يحمى الانسان من ذلك الداء العضال، لأن العقل مناط الوعى والرشد والبصر والتمييز والادراك ٠ ومن ثم يرتبط الايمان بالعقل فى العقيدة الاسلامية ارتباطا وثيقا ، فكتاب الاسلام يتجه الى العقل فى تأييد الدين وترسيخ الايمان، والله يبين الآيات لقوم يعقلون ويؤمنون، ويضرب الأمثال لقوم يتفكرون ويبصرون ويفقهون ويوقنون ، ويسوق العبرة لأولى الألباب ، والعالمين ، لأنهم المرجوون للنظر فى آيات القدرة الالهية ، وتدبر النظام الكونى المحكم ، والايمان بأنه لم يوجد عبثا ، ولا يمكن أن يسير بتلقائية عشواء (٨٩) (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) (٩٠) ٠

لكن لئن كان البرهان المنطقى أقوى البراهين فى تحقيق الايمان الجازم سى أمور الدين ، فان ذلك لا ينفى أن يكون للعقل حـــــدودا يقف عندها ولا يتخطاها ، وذلك لأن من طبيعة العقل الانسانى أن يعجز عن معرفة الحـــق تفصيلا فى الأمورالغيبية التى تتصل بالحياة الأخرى ، أى ما بعد الموت ، وعندئذ يجب عليه أن يلزم الصمت ، وان يتقبل المعرفة من مصدر آخر · لقد اعترف الغزالى فى كتابه المقصد الاسنى أن هناك أمورا تخفى على العقـــل بصفة عامة ، وان ما يخفى عليه منها على نوعين : فهناك أمور قد تدركها بعض العقول، ولكنها تبقى مغلقة، ومحجبة بالأسرار بالنسبة الى معظم البشر، وهناك أمور أخرى لا يتسنى ادراكها لأى عقل انسانى مهما بلغت حدته وقوة نفاذه (ذلك العظيم المطلق الذى جاوز جميع حدود العقل ، حتى لم يتصور الاحاطة بكنهه) ، فيضطر العقل هنا الى الاعتراف من تلقاء نفسه أن هناك طورا أو مرتبة أسمى منه وليس فى هذا الاعتراف ما يعيبه ، لأنه حتى فى حال عجزه ، يعرف طاقته ، ويعلم قدر نفسه (٩١) ·

وهذا الطور الذى يعترف العقل بوجوده ، هو طور النبوة الذى يكشف لذوى المشاهدة الصوفية أيضا عن أمور لا يمكن ادراكها بمقياس العقـــل أو بالذوق الصوفى ، فان (العقلاء بأجمعهم معترفون بأن العقل لا يهتدى الى ما بعد الموت ، ولا يرشد الى وجه ضرر المعاصى ونفع الطاعات ، ولا سيما على سبيل التفصيل والتحديد ، كما وردت به الشرائع ، بل أقروا بجملتهم ان ذلك لا يدرك الا بنور النبوة ، وهى قوة وراء العقل ، يدرك بها أمور ، لا عن طريق التعرف بالأسباب العقلية((٩٢) ·

واذا كان فيلسوف الأندلس ابن رشد قد اشتهر باتجاهه العقلى ، الا أنه مهما أشاد بالعقل ونظره وقدرته على المعرفة ، يصرح بأن هناك أمورا يعجز العقل عن معرفتها ، واذن فلنرجع الى الوحى الذى جاء متمما لعلم العقل ، فان (كل ما عجز عنه العقل أفاده الله تعالى الانسان من قبل الوحى) · وهذه الأمور التى يعز ادراكها على العقل ، أمور من (الضرورى علمها لحياة الانسان ووجوده وسعادته) ·

ونرى ابن رشد يكرر هذا الذى يراه ويؤكده فى موضع آخر حين يذكر أن الفلسفة تعنى بتعرف ما يجىء به الشرع ، فان ادركته كان ذلك أتم فى

المعرفة ، والا (أعلنت بقصور العقل الانسانى عنه ، وان هذا مما يدركه الشرع وحده) (٩٣) ٠

ومهما يكن من شيء ، فالأمور التى لا يكتفى العقل بنفسه فى معرفتها ، تتلخص كما يرى فيلسوف الأندلس فى معرفة الله، والسعادة والشقاء الانسانى فى هذه الحياة الدنيا وفى الحياة الأخرى أيضا ، ووسائل هذه السعادة وأسباب هذا الشقاء ، وذلك بأن الفلاسفة (ولعله يريد فلاسفة اليونان) يرون أن الانسان لا تقوم حياته وسعادته فى هذا العالم وفى العالم الآخر الا بالفضائل الخلقية ، وهذه الفضائل لا تتمكن فى النفس الا بمعرفة الله وتعظيمه بالعبادات المشروعة حسب الملل المختلفة ، مثل القرابين والأدعية والصلوات ونحو هذا وذاك مما لا يعرف الا من الشرع الموحى به ٠

أو بعبارة أخرى ، ان هذه الأمور لا تتبين كلها أو معظمها الا بوحى ، أو يكون تبيينها بالوحى أفضل ٠ ولا عجب فى هذا ، فان الفلسفة تنحو نحو تعريف بعض الناس سعادتهم ، وهم من عندهم استعداد لتعلمها ، واما الشرائع فتقصد تعليم الجمهور عامة ، ولذلك كان العلم الذى يأتى به الوحى رحمة لجميع الناس ٠

واذا كان هناك فى كتابات أخرى لابن رشد عبارات قد يشتم منها تعارض وتناقض مع هذا الرأى ، فقد ناقشه ووضحه الدكتور محمد يوسف موسى فى دراسته عن ابن رشد لا يتسع المقام هنا لبسطها ، فضلا عن أن هذا التفصيل قد يبعدنا عن موضوعنا (٩٤) ٠

وعند اخوان الصفا نجد أن نظرية المعرفة ترتبط برأيهم فى الكون ، حيث قالوا بفيض الموجودات عن الله سبحانه ، ثم جعلوا الموجودات تتدرج بعد ذلك فى صورة تنازلية ، ومعنى ذلك أن الله سبحانه هو مصدر المعرفة، وهو المفيض على العقل الكلى فيض نوره والعقل بدوره يفيضها على النفس الكلية التالية له والتى تفيض بدورها على الأنفس الجزئية وهم بنو الانسان ٠ والأنبياء يصطفيهم الله ليعلموا البشر ومن يروض نفسه بالحكمة من بقية البشر يمكنه أيضا الاتصال بالملائكة ويستمد العلم منها ، وبهذا حاول اخوان الصفا أن يوفقوا بين الشريعة والحكمة ، بين الحقائق الدينية والحقائق

الفلسفية ، اذ كل منهما ثمرة الاتصال وتقبل الفيض الالهى ، أما عن طريق الالهام والوحى بالنسبة للانبياء ، وأما عن طريق النظر والتأمل والتجرد من علائق الدنيا فيمكن أن يؤدى هذا بنفس المرتاض الى الاتصال بالملائكة وتقبل الفيض منهم (٩٥) ٠

ومن هنا ، يمن الاسلام على البشرية بحسم الخصومة بين الدين والعقل، ويحرر الانسان من أزمة التصادم بين الايمان والعلم ٠ وتقدم علماء الاسلام ، فى طمأنينة واثقة من تأييد العقيدة الاسلامية للعلم واكبارها العقل ،يدرسون الظواهر الكونية بعقلية متحررة ، ويؤيدون النظريات العقلية بتجارب عملية ودخلوا التاريخ العلمى روادا لآفاق لم يصل اليها أحد من قبلهم ، فكانوا هم الذين أصلوا مبادىء المنهج الاستقرائى ، ووضعوا أوليات البحوث التجريبية فى الطبيعيات والرياضيات والطب والصيدلة ، وقدموا معها مخترعاتهم من أجهزة التجربة المعملية والرصد الفلكى والملاحى (٩٦) ٠

ولمن شاء أن يقرأ كتاب المستشرق الايطالى (نالينو) فى (تاريخ الفلك عند العـــرب) والمســـتشرق الروسى (كراتشكوفسكى) فى (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ، والمستشرق الفرنسى (فيران) فى مقـدمة (كتـاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد ، لأحمد بن ماجد) ٠

والعالم الألمانى (ساوتر) فى (الخوارزمى) و (سارتون) فى (عصر البيرونى) ، والمؤرخ (سيديو) فى (تاريخ العرب) ، والعلامة (جوستاف لوبون) فى (حضارة العرب) ٠

ومما كتب لوبون : (والانسان يقضى العجب من الهمة التى أقدم بها العرب المسلمون على البحث ، فاذا كانت هنالك أمم قد شاركت العرب فى ذلك، فانك لا تجد أمة فاقتهم على ما يحتمل فالعرب كانوا اذا ما استولوا على مدينة صرفوا همهم الى انشاء مسجد ومدرسة فيها) (٩٧) ٠

٦ ـ دور المنهج فى دراسة التربية الاسلامية

ولكى نبين الدور الذى يمكن أن يلعبه المنهج فى صورته المتكاملة ، فلابد من التنبيه أن للشريعة الاسلامية ميادين ثلاثة فى حياة الناس تصول فيهـا

وتجول ، ولها فى كل ميدان من هذه الميادين أسلوب يختلف عن أســـلوبها فى غيره · أما الميادين الثلاثة فهى : (٩٨)

١ ـ ميـــدان العقائد ·
٢ ـ ميدان العبادات ·
٣ ـ ميدان المعاملات ·

وأما أسلوبها فى كل ميدان من هذه الميادين فهو على الترتيب :

١ ـ أســـلوب المخبر الواصف ·
٢ ـ وأسلوب المنشىء المحدد ·
٣ ـ وأسلوب الناقد المهذب ·

ـ وميدان العقائد لا يسوغ أن يكون محل اجتهاد ، أما العبادات فهى انشاءات انشأها الله تعالى ورسم حدودها وهيأها على صورة خاصة وطلب من عباده أن يعبدوه بها · أما الميدان الخاص بالمعاملات فالشريعة ليست هى التى أنشأت للناس صور التبادل ، والتعاون والتعامل ، ولكنها جاءت فوجدت صورا يتعامل بها ، فكان لها موقف منها غير موقف الانشاء والرسم، وغير موقف الاخبار والوصف ، وذلك الموقف هو الاقرار والتعديل أو الالغاء وهو ما أسميناه (أسلوب المهذب) (٩٩) · وهى لا تتدخل فى هذا الميدان الا بمقدار ما تحمى مثلها ومبادئها التى جاءت بها من العدل والتيسير والرحمة، ودفع أسباب التشاحن والبغضاء ، وربط أفراد المجتمع برباط المحبة والتعاون على البروالتقوى لا على الاثم والعدوان ·

والمتأمل فى كثير من مسائل التربية وقضاياها ، سوف يجد أنها فى الغالب والأعم تدخل ، فى هذا الباب الثـــالث ، فمواد الدراسة ومقرراتها ومحتواها ، وطرق التعليم وأساليبه ونظم الدراسة وادارتها وتمويل التعليم وتخطيطه ·· الى غير ذلك من الموضوعات ، هى مما يختلف ويتغير بدورة الزمان وتباين البقاع وتنوع المجتمعات ، من هنا كان الحـــال فيها نسيجا للاجتهاد واعمال العقل ، وكانت أرضا خصبة لحسن الاستنباط والاستنتاج ، ومعملا مثاليا للتجريب والتطبيق والحذف أو التعديل أو الاضافة وفقا لما تؤدى اليه نتائج التجريب والتطبيق · أما أن (تخلط الأوراق) ويزج بكل المسائل التربوية فى ميدان الدراسات الدينية ككل دون تفرقة ، فهـذا فيـه اجحاف بالدراسة التربوية وتحميلها ما لا تطيق ·

ولو تعمقنا فى البحث بعض التعمق فى كل القضايا التى سبقت رأينا المنهج العقلى يؤدى دوره كاملا فيها مع أنها خارجة عن سلطانه ، يؤدى دور المزاملة والمزاوجة فى ميدان النظر الى النصوص القرآنية مفصلها ومجملها كما يبين ذلك الامام القاسم الرسى فى كتابه (أصول العدل والتوحيد) حيث يقول : (ان هناك ثلاث حجج احتج بها المعبود على العبد ، وهى العقل ، والكتاب ، والرسول ، فجاءت حجة العقل بمعرفة المعبود ، وحجة الكتاب بمعرفة التعبد ، وجاءت حجة الرسل بمعرفة العبادة ، والعقل أصل الحجتين الأخيرتين لأنهما عرفا به ، ولم يعرف بهما) (١٠٠) ٠

والاسلام اذ يأمر الانسان باستخدام المنهج العقلى ، فانما يهدف من ذلك الى تربيته تربية عقلية مضبوطة ، تأمن صور الشطط والجمود ، ولذا فالاسلام يبدأ تربية الانسان على هذا المنهج بتحديد مجال النظر العقلى ، فيصون الطاقة العقلية ان تتبدد وراء الغيبيات التى لا سبيل للعقل البشرى أن يحكم فيها ٠

وهو يعطى الانسان نصيبه من هذه الغيبيات بالقدر الذى يلبى ميله لمجهول ٠

ثم بعد ذلك يأخذ فى تدريب الطاقة العقلية على طريقة الاستدلال المثمر والتعرف على الحقيقة فيتخذ الى ذلك وسيلتين :

الوسيلة الأولى هى وضع المنهج الصحيح للنظر العقلى ٠

والوسيلة الثانية هى تدبر نواميس الكون وتأمل ما فيها من دقة وارتباط (١٠١) ٠

والوسيلة الأولى يصل اليها بطائفة من التوجيهات والتدريبات :

فهو أولا يبدأ بتفريغ العقل من كل المقررات السابقة التى لم تقم على يقين ، وانما قامت على مجرد التقليد أو الظن ، وقد سبق أن بحثنا ذلك بالتفصيل ٠

ثم هو يأمر بالتثبيت من كل أمر قبل الاعتقاد به واقتفائه : (ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)(١٠٢) وهى مسئولية ضخمة ، يبرز التعبير ضخامتها بأفراد السمع والبصر والفؤاد فى مبدأ الأمر ليكون كل منها مسئولا على حدة ، ثم جمعها بعد ذلك كلها .

واشراكها فى المسئولية ، بهذا الجمع والتوكيد : (كل أولئك) ، وذلك كله ليحس الانسان بعظم التبعية وهو يقدم على الأمر ، فلا يأخذ الأمور باستخفاف، ولا يأخذها بلا تثبت وهو عنها مسئول ٠

والوسيلة الثانية ـ وهى تدبر نواميس الكون ـ تطبع العقل بطابع من الدقة والتنظيم :

ان نواميس الكون تجرى فى دقة عجيبة ونظام لا يختل ، وفوق ما يوحيه للقلب البشرى من تقوى الله الصانع المدبر والتوجه له فى كل أمر ، فانه يعود العقل على دقة النظر وانضباط الأحكام ٠ ان دورة الأرض ودورة الشمس ودورة الأفلاك ليست مضبوطة بالساعة ولا بالدقيقة ولا بالثانية ولا بالثالثة٠٠ ولكنها مضبوطة بسرعة الشعاع الذى يقطع ١٨٦ ألف ميل فى الثانية ٠ والنظر فى هذه الدقة المذهلة يعود العقل أن يدقق ، فكل خلل بسيط فى التفكير أو التقدير ينتج عنه أخطاء جسيمة ، لو كان يحدث مثلها فى الكون لانفلت عقده وتهاوى ما فيه من أفلاك ٠ والعقل قمين ـ حين يرى تلك الدقة والترابط ـ أن يحاول ضبط أفكاره وربطها ، والوصول الى الكليات التى تربط الجزئيات وتحكمها ـ كما يرى فى نظام الكون الكبير (١٠٣) ٠

واذا كان الاسلام قد حرص على أن يوجه العقـــل البشرى بمنهجية مخصوصة الى الكون بما فيه وبمن فيه ، ودراسته الدراسة الكافية للتعرف على كل تلك الكائنات التى خلق الله ، والتى أقام ما بينها من علاقات على أساس محكم بديع ، فانه قد استهدف من توجيه العقل البشرى نحو هذه الدراسة :

١ ـ أن يقف العقل البشرى بنفسه من كتاب الله المخلوق ، وهو الكون على الحصيلة الهائلة من المعرفة البشرية التى تمكنه من ممارسة الحيـــاة اليومية ٠ والحياة العامة ، وممارسة سليمة محققة للصالح العام دافعة عن الانسان الضرر ، وجالبة للانسان المنفعة ٠

٢ ـ أن يستثمر العقل البشرى من تلقاء نفسه تلك الموارد الطبيعية التى سخرها الله من ليل ونهار ، ومن شمس وقمر ، ومن يابسة وماء ، الاستثمار الذى يحقق له السعادة فى اطار من المبادىء الأخلاقية التى جاء بها الاسلام

من الاخلاص للعمل ، والاتقان له ، واتقاء الله فى كل خطوة يخطوها الانسان فى سبيل العمل حتى يكون الهـدف دائما هو تحقيق الخيـر العام للبشرية جمعـــاء ٠

٣ ـ تنظيم العلاقات بين الله والانسان ، وبين الانسان والانسان ، وبين الانسان والأشياء ، على أساس ما اكتسبه الانسان من معارف بشرية مستمدة منكتاب الكون الذى خلقه الله بمن فيه وما فيه من كائنات (١٠٤) ٠

واذا كنا قد بينا أن من أهم التوجيهات القرآنية فى استخدام المنهج العقلى هى أن يميز العقل نفسه بين الذين يستثمرون الأدوات التى خلقها الله من أجل تزود العقل بالمعرفة ، والذين لا يستثمرونها ، فان مما يلحق بهذا التوجيه ، توجيه آخر انصب على الانسان ذاته ، فقد طلب القرآن الكريم الى الانسان أن ينظر ويفكر فى كيفية خلقه وخلق ما تتطلبه حياته من ضرورات متمثلة فى المأكل والمشرب والمسكن والملبس وما الى ذلك ٠ واستجابة العقل البشرى للنظر فى هذه الأمور والتفكير فى كل بعد من أبعادها ، هو الذى حقق هذه الحصيلة الهائلة من المعرفة البشرية فى هذه الميادين ، وهو الذى حقق بفضل هذه المعرفة ما نراه اليوم من تطور قد تناول كل ما يتصل بالانســـان من حيث هو كائن حى ، وبضرورات حياته (١٠٥) ٠

والقرآن الكريم حين يلفت العقل البشرى الى التجـــارب البشرية التى خاضتها عقول السلف السابقين ، يلفته الى ما يمكن أن يكون الظاهرة التى لا تتخلف ، أو الى سنة الله فى خلقه ، تلك السنة التى لا نجد لها تبديلا ٠

والظاهرة الأولى التى يقف عندها فى هذا المقام ، هى تلك التى يشير اليها القرآن من المراحل الأولى من حياة البشرية كانت مراحل تخلف ، الى أن هيأ الله للبشرية اناسا تتوفر فيهم صفات القيادة ، وتتوفر لهم الامكانات التى تساعدهم فى قيادة مجتمعاتهم فى سبيل التطور (١٠٦) ٠ والآية القـــرآنية الكريمة التى تشير الى هذه الظاهرة الاجتماعية هى قوله تعالى : (كان الناس أمة واحـــدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنـــذرين وانزل معهم الكتـــاب والحكمة) (١٠٧) ٠

والظاهرة الاجتماعية الثانية والتى ترتبط بالسابقة أقوى ارتباط ، هى

أن القرآن الكريم لم يقف عند البعد الزمنى وحده فى حديثه عن التجـــارب البشرية ، وانما تجاوزه الى البعد المكانى والى الواقع الاجتماعى المعاصر لنزوله ، يقص وقائعها باعتبارها من الظواهر الاجتماعية التى لا تتخلف ، والتى تدخل فى اطار من سنن الله فى خلقه · يقول تعالى : (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) (١٠٨) ·

والظاهرة الثالثة ، والتى ترتبط مع الثانية بسبب ، هى أن الناس فى المجتمع ينقسمون فى الغالب الى فريقين : فريق يقبل الهداية ويمضى خطوات فى سبيل الله ، وفريق الذين يرفضون المضى فى سبيل الله ويقفون حيث كان يقف الآباء والأجداد قبل الهداية · ويجعل القرآن الكريم من الفريق الأول المعذبين فى الأرض من الفقراء والمساكين ومن اليهم من المستضعفين ، ويجعـــل من الفريق الثانى ، المستكبرين من المترفين والمستغلين ، يقول تعالى : (وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها : انا بما أرسلتم به كافرون) (١٠٩)

والمنهج المتكامل بين العقل والنقل ، اطار ضرورى لمواجهة تلك الحـــاجة الانسانية الى استغلال طاقة الواقع وطاقة الخيال · كانت الرومانتيكية تهمل واقع الأرض وتهيم فى الأحلام ، والواقعية بعدها تنتكب الأحلام عمدا وتجنح الى الواقع الصغير المحدود الذى تدركه الحواس ، ويمارسه الناس وهـــم واقعون تحت ضغط الضرورة ، لا منفلتين منها ولا مترفعين عليها (١١٠) ·

هنا نجد المنهج الاسلامى الحق يوقع على الوترين المتقابلين ، كل فى نطاقه ، وكل بما يصلح له :

فاما طاقة الواقع فيعطيها عملها الكامل فى نطاق الحياة ونطاق الأرض: اقامة الدولة وتنظيمها وحمايتها وتنظيم المجتمع بحاجاته المادية والاقتصادية والسياسية والتعليمية ·· الخ واستخلاص معادن الارض وطاقاتها واستغلالها لمنفعة البشر وتنظيم العلاقات مع الدول الأخرى فى الحـــرب والسلم ·· الخ ولكنه لا يقنع بالضرورة ، ولا يحجر مشاعر الناس ويوقفها فى حدود هذا الواقع الصغير لكى لا تفسد ، ولكى لا يأكلها الصراع على عالم المادة ، لذلك يشغل طاقة الخيال لتساند طاقة الواقع ، وترفعها عن قيود الواقع المحدود ··

يشغلها فى تخيل الكمال المطلق بقدر ما تطيق لأن تخيل الكمال المطلق يجعلها تهفو لاصلاح (الواقع) ومحاولة الوصول به الى الكمال ، ومن ثم يصبح الخيال واقعا بعد حين ويرتفع مستوى البشرية كلها بقدر ما تطيق ٠

حقا ٠٠ ان الحياة البشرية من الثراء والتنوع بحيث وجب على الانسان أن يستثمر كافة طاقاته كى يعب منها بقدر ما يستطيع ، وهو فى ذلك انما يحقق هدفا رئيسيا من خلقه على هذه الأرض ، فقد استخلفه عز وجل عليها ،والقيام بمسئولية الاستخلاف تقتضى حسن الاستثمار ، وحسن الاستثمار لا يكون الا بالتعمير الدائم المستمر ، وهذا وذاك لابد أن يستند الى (استقامة خلقية) يحددها المولى عز وجل وبالمنهج العقلى ، وبقواعد الشريعة ، يمكن للانسان أن يطمئن الى (استقامة) الطريق فتتحقق أهداف التربية الاسلامية ٠

الهـــوامش

(١) آل عمران / ٨٥ (٢) الاسراء / ٧٠

(٣) نادية شريف العمرى : **الاجتهاد فى الاسلام ، بيروت** . مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٥ ، ص ٦

(٤) الأنعام / ٣٨

(٥) على سامى النشار : **مناهج البحث عند مفكرى الاسلام، الاسكندرية** دار المعارف ، ١٩٦٧ تصدبر الطبعة الثانية .

(٦) عباس محمود العقاد : **التفكير فريضة اسلامية** ، القاهرة ، دار القلم ، الطبعة الاولى ، د.ت ص ٢٧

(٧) البقرة / ١٧٠ (٨) المائدة / ١٠٤

(٩) الأعراف / ٢٨

(١٠) الشعراء / ٧٤

(١١) الزخرف / ٢٣

(١٢) سعيد باسل : **منهج البحث عن المعرفة عند الغزالى** ، بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ، د.ت ، ص ١٣٠

(١٣) المرجع السابق ، ص ١٣١

(١٤) المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

(١٥) الامام محمد بن على الشوكانى : **القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد** ، بيروت ، دار القلم ، ١٩٨٣ ، ص ٤١

(١٦) المرجع السابق ، ص ٤٢

(١٧) مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، **المعجم الوسيط** ، مادة عقل .

(١٨) شاكر عبد الجبار : **المنهج العلمى للاعتقاد** ، بغداد ، مكتبة القدس ١٩٨٤ ، ص ٦٣

(١٩) المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(٢٠) التفكير فريضة اسلامية ، ص ٦

(٢١) يوسف / ٢٢

(٢٢) لقمـــان / ١٢ (٢٣) المـــائدة / ١٠٠

(٢٤) الزمر / ٢١

(٢٥) الطـــلاق / ٢

(٢٦) البقـــرة / ١٦٤
(٢٧) قدرى حافظ طوقان : **مقام العقل عند العرب** ، بيروت ، دار القدس ، د ٠ ت ، ص ٢٩

(٢٨) ابو حاتم محمد بن حبان : **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء** ، شرح وتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد وآخرون ، بيروت ، دار الكتب العلمية، ١٩٧٧ ، ص ١٦

(٢٩) عبد الرحمن صالح عبد الله : **ابن الجوزى وتربية العقل** ، مكة المكرمة ، شركة مكة للطباعة والنشر ، ١٩٨٦ ، ص ١٩

(٣٠) المرجع السابق ، ص ٢١
(٣١) ابن حبان ، ص ١٦
(٣٢) حسنى زينة : **العقل عند المعتزلة ، بيروت** ، دار الافاق الجديدة، ١٩٧٨ ، ص ١٦

(٣٣) المرجع السابق ، ص ١٨
(٣٤) النمـل / ٥٢
(٣٥) الرعـد / ٤
(٣٦) عبد العال سالم مكرم : **الفكر الاســلامى بين العقل والوحى** ، بيروت ، دار الشروق ، ١٩٨٢ ، ص ٧

(٣٧) المرجع السابق ، ص ٨
(٣٨) سعيد اسماعيل على : **دراسات فى التربية الاسلامية** ، القاهرة، عالم الكتب ، ١٩٨٢ ، ص ١٣١

(٣٩) الانفـــال / ٦٧
(٤٠) التـــوبة / ٤٣
(٤١) مقام العقل عند العـرب ، ص ٣٥

(٤٢) زكى نجيب محمود : **المعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى** ، بيروت ، دار الشروق ، د٠ت ، ص ١٧
(٤٣) عائشة عبد الرحمن : **الشخصية الاسلامية** ، بيروت ، دار العـلم للملايين ، ١٩٧٣ ، ص ١٣٩
(٤٤) الفرقان / ٤٥
(٤٥) الشورى / ٣٣

(٤٦) الواقعة / ٦٣ ـ ٧٠
(٤٧) يس / ٤٠
(٤٨) الشخصية الاسلامية ، ص ١٤٠
(٤٩) المرجع السابق ، ص ١٤١
(٥٠) المرجع السابق ، ص ١٤٢

(٥١) أحمد محمود صبحى : **الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الاسلامى** ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٩ ، ص ١٢٠

(٥٢) المرجع السابق ، ص ٢٦
(٥٥) المرجع السابق ، ص ٢٨
(٥٦) تركى رابح عمامرة : **الامام عبد الحميد بن باديس ، فلسفته وجهوده فى التربية والتعليم** ، رسالة ماجيستير ، استنسل ، كلة التربية ، جامعة عين شمس ، ١٩٦٩ ، ص ٢٢٩

(٥٧) محمد أحمد خلف الله : **مفاهيم قرآنية** ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (٧٩) ، يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، يولية ١٩٨٤ ، ص ١٥٥

(٥٨) البقرة / ١٧١
(٥٩) محمد أبو زهرة : **تاريخ الجدل** ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٨٠ ، ص ٦

(٦٠) المنافقون / ٨
(٦١) ابراهيم / ١٠ ـ ١١
(٦٢) تاريخ الجدل ، ص ٦٢
(٦٣) سعيد اسماعيل على : دراسات فى التربية الاسلامية ، ص ٢٥٠
(٦٤) المرجع السابق ، ص ٢٥١

(٦٥) احمد محمد الحوفى : **القرآن والتفكير** ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، سلسلة دراسات فى الاسلام (١٧٠) ، ١٩٧٥ ، ص ١٣
(٦٦) المرجع السابق ، ص ١٤ (٦٧) النحل / ٦٨
(٦٨) القصص / ٧ (٦٩) مريم / ١٢١
(٧٠) الأنعام / ١٢١
(٧١) النجم / ٤
(٧٢) الفكر الاسلامى بين العقل والوحى ، ص ١٨

(٧٣) الشـــورى / ٥١
(٧٤) الشعراء / ١٩٢ ـ ١٩٥
(٧٥) الفكر الاسلامى بين العقل والوحى ، ص ١٩
(٧٦) المنهج العلمى للاعتقاد ، ص ٨٥
(٧٧) المرجع السابق ، ص ٨٦
(٧٨) الحجـرات / ١٤
(٧٩) المنهج العلمى للاعتقاد ، ص ٩٢

(٨٠) مصطفى ابراهيم الزلمى : **دلالات النصوص وطرق استنباط الأحكام في ضوء أصول الفقه الاسلامى** ، بغداد ، مطبعة أسعد ، ١٩٨٣ ، ص ٩

(٨١) سعيد اسماعيل على : **ديموقراطية التربية الاسلامية** ، القاهرة، عالم الكتب ، ١٩٨٢ ، ص ٢٢٠

(٨٢) نادية شريف العمرى ، ص ٦٤
(٨٣) مناهج البحث عند مفكرى الاسلام ، ص ١٠٤
(٨٤) المرجع السابق ، ص ١٠٧
(٨٥) أحمد عباس الدورى : **اثبات العلة الشرعية بالأدلة العقلية**، جدة، دار الشروق ، ١٩٨٢ ، ص ٤٧

(٨٦) المعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى ، ص ٢٣٥
(٨٧) نادية شريف العمرى ، ص ٨٣
(٨٨) المرجع السابق ، ص ٨٤
(٨٩) الشخصية الاسلامية ، ص ١٤٨
(٩٠) العنكبوت / ٤٣
(٩١) محمود قاسم : **دراسات الفلسفة الاسلامية** ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٧ ، ص ١٥٨

(٩٢) المرجع السابق ، ص ١٥٩
(٩٣) محمد يوسف موسى : **بين الدين والفلسفة فى رأى ابن رشـــد وفلاسفة العصر الوسيط** ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ ، ص ١٠٤

(٩٤) المرجع السابق ، ص ١٠٦
(٩٥) نادية جمال الدين : **فلسفة التربية عند اخوان الصفا** ، القاهرة، المركز العربى للصحافة ، ١٩٨٣ ، ص ٢١٠
(٩٦) الشخصية الاسلامية ، ص ١٥٩

(٩٧) المرجع السابق ، ص ١٦٠
(٩٨) الفكر الاسلامى بين العقل والوحى ، ص ٤٧
(٩٩) المرجع السابق ، ص ٤٨
(١٠٠) المرجع السابق ، ص ٤٩
(١٠١) محمد قطب : منهج التربية الاسلامية ، ص ٩٢
(١٠٢) الاسراء / ٣٦
(١٠٣) منهج التربية الاسلامية ، ص ٩٤
(١٠٤) محمد أحمد خلف الله : **الأسس القرآنية للتقدم ، القاهرة** ، كتاب الأهالى (٢) ، يونية ١٩٨٤ ، ص ٤٦
(١٠٥) المرجع السابق ، ص ٥٠
(١٠٦) المرجع السابق ، ص ٦٢
(١٠٧) البقرة / ٢١٣
(١٠٨) الحج / ٤٦
(١٠٩) سبأ / ٣٤
(١١٠) منهج التربية الاسلامية / ص ١٨٢